نبيه محفوظ

منشيء مجلة « صوت البلاد »

ذكريات وعِبَر

يتضمن هذا الكتاب ذكريات من عهد الطفولة الى عهد « السرتفيكا » الى « البروفه » الى « البكالوريا » الى الفلسفة ، الى الحقوق ، الى الصحافة ، الى ... ايامنا .

المقدمة

اضع بين ايادي القراء الكرام هـذه «الذكريات» من عهد الطفولة ، الى عهد «السرتفيكا» ، الى «البروفه» ، الى «البكالوريا» ، الى «الفلسفة» ، الى «الحقوق» ، الى «الصحافة» ، الى ... ايامنا .

واذا صح بان ليس اجمل من ايام المدرسة الا ذكرياتها ، ازداد أملي بانتشار هذا الكتاب ، وتهافت القراء على مطالعته ، بكامله ، ليستعيد كل منهم ذكرياته الخاصة ، فتتجدد آماله ، ويزداد نشاطه ، ويصبح لا بدّ له الا ان يردد :

« رزقالله على تلك الايام ... فيا ليتها تعود !... »

ولكن كيف تعود ، ولكل عمل وقته ، ولكل جيل عصره ، لاسيما وان :

« ما مضى فات ، والمؤمّل غيبٌ ولك الساعة التي انتَ فيها ؟ ... »

على كلٍ ، ومهما يكن من امر ، فعسى ان يكون المستقبل في اي حقل كان ، اجمل من كل ماضٍ وحاضر ، لكل قارىء ، وعلى الله الاتكال .

نبيه

١ – عهد الطفولة

لا اذكر يوم مولدي ،

انما اسمع باني ولدت في السابع عشر من كانون الثاني يوم عيد مار انطونيوس فاسموني «انطوان» في كتاب المعمودية ، «ونبيـــه» في المجهر تيمناً باسم عرّابي. وكنت الولد البكر. وكان كثيرون من اقربائي غير متأهلين بالرغم من وفرة غناهم ، فجعلوني بين ايديهم كالالعوبة ...

ولا يزال الناس حتى يومنا هذا يحسدونني على العزّ الذي مرّ عليّ ، وعلى النعم التي نلتها ، ايام طفولتي ، بينما انا اليوم اتضايق من ذكر ذاك العهد ، عهد الطفولة الذي تعودت فيه على الغنج والدلال ، والله وحده يعلم كم اتألم اليوم ، لاسيما عندما اسمـــع بعض عارفيّ يقولون عني تارةً « غنوج » ، وطوراً «متكبر» ، واخرى «رفضي» ... الى ما هنالك من النعوت والالقـــاب المترادفة التي اقابلها بابتسامة لطيفة ولكنها ابتسامة ممزوجة بألم داخلي ، لا يلاحظه فيّ ، الا من كان له بعض الالمام بعلم النفس (Psycologie) ...

على ان ما يعزيني ، زعمهم انني ، يوم ولدتُ كنت مطلـع سعد على والديّ وعلى جمهور من اقربائي الذين تسهلت اشغالهم في ذاك النهار اكثر مما كانت تتسهل سابقاً ، فحصّلوا ارباحاً طائلة ، لم تكن بالحسبان ...

الكذبة الاولى : كما واني لا اذكر ابداً اليوم الاول الذي دخلت فيـــه المدرسة . انما اذكر الكذبة الاولى التي كذبتها في حياتي ، وانا على مقعد الدراسة في مدرسة جاراتنا راهبات العائلة المقدسة المارونيات في «غادير ، جونيه» . وكان عمري انذاك ست سنوات وثلاثة اشهر وخمسة ايام وتسع ساعات وذلك حسب حسابات ذوي الذاكرة القوية من اقربائي . وملخص الحادثة ان كان لي ، في صفي ، بين الفتايات ، رفيق يدعى جورج . وكان يجلس بجانبي ، فطلب مني مرة كي (اردّه) عندما يسمّع امثولته التي لم يكن حفظها جيداً فاجبته : وكيف يمكني ذاك والراهبة فاتحة عينيها لترى كل حركة نقوم بها نحن الصبيان خصوصاً ؟ ..

فما كان منه الا ان كتب الجواب على ورقة صغيرة وعلّقها بـدبوس بشعر

رفيقتنا الجالسة امامنا ثم نهض ليستمع ، فصوّب نظره نحو رأس الفتاة ذات الشعر الاسود الكثيف ، فقالت له الراهبة :

يا جورج انزع الكتاب من امامك .

فاجاب : « ماسور — Ma Sœur — ما في كتاب .

عندئذ قالت لي :

يا نبيه انزع الكتاب من امام رفيقك .

فاجبتها كما اجابها جورج .

فطرحت السؤال عليه ثانية . فشرع جورج يصوّب نظره ، كالمرة الاولى ، نحو رأس الفتاة التي لم تجسر ان تلتفت وراءها ولا ان تأتي بأدنى حركة خوفاً من القصاص .

اذ ذاك نهضت الراهبة من على المنبر غاضبة واتت لترى بعينيهـــا ماذا وراء رأس الفتاة ؟

وفي الحال ، وبسرعة هائلة ، « نتشتُ » الورقة المذكورة المعلقة بشعر الفتـاة ورميتها امام جورج ثم تكتفت دون ان اترك الراهبة تنتبه لعملي هذا ، وانتُزع مع الورقة كمية من الشعر ، لا بأس بها ، الامر الذي جعل الفتاة تصيح بصوت عالٍ ومؤلم قائلة : « آخ يا ماما ... »

فدهشت الرفيقـــات ، وازداد غضب الراهبة التي سألت جورج بحمق لماذا فعلتَ هكذا ؟

فاجاب : « يا ماسور — Ma Sœur — هذا نبيه الذي فعل ...

فقلت فوراً : لا لست انا بل هذا جورج الذي « نتش الورقة و... »

وكان جوابي هذا هو الكذبة الاولى التي كذبتها في حياتي .

وبما اني لم اكن من اصحاب السوابق ، صدّقتني الراهبة وكذّبت رفيقي الصادق في ذلك الوقت فقط ولله در القائل : « الكذاب كذاب ولو صدقت مرة »

وظلّت الراهبة تضرب جورج على يديه ورجليه حتى اندفع الى القول ، طبعاً بالرغم منه ، بانه هو الذي « نتش » الورقة مع قسم من شعر الفتاة ...

الزيح الاسود : وعندما كانت الراهبات ، تنظرننا «نتشيطن» ، وقد ازداد عددنا – عدد الصبيان – كنّ تجبرننا ان نقف تارة على «الزيح الاسود» في بهو المدرسة ، وطوراً على البلاطة المكسورة في الغرفة الثانية ، فنبدأ بالبكاء والنحيب اذ نحسب انفسنا مذلولين كثيراً بنظر رفيقاتنا اللواتي لم تكنّ اقل هدوءً منّا . ولكن ما الحيلة والصبيان الصغار بنظر الراهبات هم «شياطين» كبار ، ويحسبونهم مذنبين دائماً مهما كان الامر ؟

قبع الشيطان : وعندما تتكرر مخالفاتنا للنظام كانت الراهبة ، بعض الاحيان تأتينا بقبع يسمى «قبع الشيطان» او «قبوع الشيطان» . وتضعه على الطاولة امامها ثم تقول لنا :

من «يتزازل» ومن لا يعرف امثولته فنصيبه هذا «القبع» ، اضعه على رأسه واوقفه بجانب الحائط ، وقت النزهة ، ليهزأ منه كل رفاقه ورفيقاته ..

لم اذكر اني لبسته ولا مرة واحدة لاني كنت مجتهداً ، وعاقلاً ، كما كانوا يقولون ، وكأني بهم كانوا يجهلون المثل القائل : «عمرك ما تمرّ على نهر هادىء» ...

ما الحب ؟ وما الغرام ؟ :

وقضيت ثلاث سنوات ، بين الفتيات ، بمدرسة الراهبات في غادير . وكان عدد الراهبات يتراوح بين الثانية والعشرة ، ما عدا الرئيسة . وكان عدد التلميذات نحو المائة ، وعدد التلاميذ يتراوح بين العشرين والثلاثين . على اني ، لحسن الحظ ، او لسوء الحظ ، فالله اعلم ، كنتُ لا ازال «غاشماً» في ذلك الوقت ، فلم اكن افهم ما الحب ؟ وما الغرام ؟ وما الهيام ؟ ... ولم يكن رفاقي الصبيان الصغار – وكلنا كنا صغاراً – اكثر مفهومية مني بهذه الامور لان الاكبر سناً بيننا كان في الثامنة من عمره فقط .

***

الصداقة المتينة : ومن الرفاق التي تكونت بيني وبينهم صداقة متينة آنذاك : انطوان مدور ، جورج بستاني ، جورج دحروج ، جورج خوري ، مارون لك ، ايلي بدوي ، فؤاد عساف ، عبدالله فارس ، حبيب حبيب ...

ومنعاً لكل التباس في سلامة النيات ، أعرض عن ذكر الفتيات من رفيقاتي

واكثرهنّ اصبحنَ اليوم متزوجات، وبعضهن راهبات، ومنهن مَن لا تزلن غير متأهلات ...

* * *

الراهبات : اما الراهبات اللواتي ترأسن المدرسة ، فاذكر منهنّ ، ما عدا اللواتي نسيت اسماءهن دون ان انسى فضلهنّ : الاخت ماري مادلين ، الاخت مارت ، الاخت فكتوار ، الاخت كاترين الاخت سابين ، الاخت فيلومين ...

واذا ذكرت اسم الاخت ماري مادلين قبل رفيقاتها، فلا لانها اليوم رئيسة مدرستهن الزاهرة في بيروت، بل انما ذكرتها اولاً لاني ازقت منها – ولكن مرة واحدة فقط – مرارة القضبان على رجليّ . فقد فاجأتني مرة أدخل المسطرة في رقبة رفيقي عبدالله الذي، في البدء ،جرّب ان يضعها في رقبتي فنزعتها منه وبادلته بالمثل ،واذ بالاخت الرئيسة تطل من غرفتها الكائنة تجاه شباك صفّنا ، فشاهدتني وضربتني (من حرقة قلبها) بينما كانت تقول لي :

« يا نبيه ما ارزلك ... يا ضيعان ما كنا نقول انك عاقل ... »

وبقيتْ اثار القضبان على رجليّ ويديّ نحو اسبوع كما بقي تأثيرها عالقاً في ذهني حتى يومنا هذا .

الا ان تلك الهفوة كانت الاخيرة ، اذ كنا صرنا في فصل الربيع ، وانا في الثامنة من عمري ، والراهبات اصدرن قراراً بان لا تقبلن الصبيان الذين بلغوا من التاسعة ، فصبرت حتى آخر السنة ...

« بالجملة لا بالمفرّق » : وعلى اثر قساوة الرئيسة عليّ حنق رفاقي وكثيرات من رفيقاتي واتفقوا على ان يخالفوا النظام وقت الدرس في الصف « بالجملة لا بالمفرّق » نكاية بالرئيسة التي قلما كانت تبتسم امـــام الناس ، بل دائماً « عاطية لعظمة استحقاقها » كما يقول المثل العامي .

واصبحت الراهبة ، عندما يضج الصف كله ، ويعذبها تزربنا مدة ساعة او نصف ساعة بعد ان يُقرع الجرس في آخر الوقت . ولم تكن تتركنا نذهب الى

بيوتنا قبل ان تأتي طالبة من الطالبات الكبيرات وتعاهد الراهبة باننا لن نعذبها في اليوم التالي ، فتصفح عنا ، ونخرج من الباب مسرعين مثل الدجاج الخارجة من «القن» بعد انحباس طويل .

ومن اللواتي كفلننا آنذاك : جوزفين ريشا ، فرجيني خوري ، املي نصر ، فرجيني ريشا ، تراز خازن ، سيده موسي ...

المصيبة الكبرى : اما المصيبة الكبيرة التي قلما كان يؤثر فيها علاج فهي تمضية نهار الاربعاء بعد الظهر ، ونهار السبت بعد الظهر . لان الراهبات كنّ تعطيننا عطلة في هذين اليومين لمدة نصف النهار للاستراحة من عناء الدرس ولتتمكن الفتيات ، يوم السبت بنوع خاص ، من مساعدة والداتهن في الاعمال البيتية .

وكنا ، نحن الصبيان نحار اين ؟ وكيف نقضي الوقت ؟

فبالمدرسة لا تصدق الراهبات متى ترتحن من «شوفتنا ، ورزالاتنا» ؛ وفي البيت ، العوز بالله ، كنا مثل « دبابير فالته» ؛ وعلى الطرقات ، لم يتركنا اهلنا نتمشى خوفاً من العشرة الرديئة التي لا يخفى تأثيرها على الاخلاق ،

وبالاجمال كنا ، كما يقول المثل العامي «نحتار يا قرعه وين بدنا نبوسك؟»...

في كنيسة الرعية :

ولم تكن المدرسة بحجمها الحاضر آنذاك ، ولم يكن فيها معبد لاقامة القداس يومياً ، فكانت الراهبات «تجرّنا» الى كنيسة مار فوقا ، كنيسة الرعية . وكان خادم الرعية الخوري يوسف الهوا ، ويعاونه كاهن اصغر سناً منه يدعى الخوري يوسف الهوا ايضاً ، وكان الناس ، حتى لا يخلطوا بين الاثنين في احاديثهم ، يقولون : الخوري يوسف الكبير ، والخوري يوسف الصغير الى ان ارتقى الخوري يوسف الكبير الى درجة الخوراسقف فاصبحوا يقولون : المنسونيور...

وفي بعض ايام الآحاد والاعياد ، كنت ارى بين السيدات ، من كنّ عابسات كثيراً ، وبينهنّ دامعات اثناء خروجهنّ من الكنيسة ، وكنت احار في امرهنّ الى ان فهمت ، فيما بعد ، بان سبب زعلهنّ عائد الى توبيخ الخوراسقف

يوسف المواطنّ ، داخل الكنيسة ، ومنعهنّ من تناول الذبيحة الالهية بحيث اتينَ بلباس «قصير»...

وقلما كنّ تخفنَ من الخوري يوسف «الصغير» لانه كان «راخي» الحملة على «الكبير» الذي كان اقدر واوسع ثقافة منه ، اذا جاز القول .

زعامة الضيعة : وكان بين شباب الرعية آنذاك اتفاق والفة وغيرة فتحمسوا الى انشاء اخوية قلب يسوع رغبة في تشديد عرى الصداقـــة والاخوّة بينهم ، وللقيام ، الى جانب الصلاة كل اسبوع ، بكل ما يعود منه نفع للرعية .

ولكن بعد انشاء الاخوية بمدة ، دبّ الخلاف بـين بعض افرادها بسبب تزاحمهم على الرئاسة التي عليها ترتكز زعامة الضيعة ، بحسب ظنهم ، وبئس ذاك الظن .

ولم تمض اسابيع على اختلافهم حتى اصبح كل واحد يقول لرفيقه : « كل اخوية وانتم بخير ، فقد انفخت الدف وتفرقوا...»

وعبثاً حاول المصلحون المخلصون اعادة الميـاه الى مجراها بحيث ان الخلاف وقع قرب موعد الانتخابات النيابية التي من اهم «برامجها» ، وإن عن غير قصد ، التفريق بين الاهل والاقرباء ، وابناء البلدة الواحدة كما لا يخفى .

وكان دورنا في ذاك الوقت ، دور «المتفرّج» فقط بحيث كنا لا نزال صغاراً . وكثيراً ما كنا نخاف ، ونبتعد عـن الوقوف في ساحة الكنيسة عندما يجتمع بعض رجـال الضيعة للتفاهم بحيث كانت اجتماعاتهم معززة بالعتابات ، وارتفاع الاصوات ، والتحمس لدرجة تجعلنا نظن بهم ، انهم سيتضاربون بعضهم مـــع البعض... وقد فعلوا اكثر من مرة...

رسالة الشعنينة : على اننا لم نكن نتردد عن تلبية رغبة كاهنـَي الرعية اللذين اقترحا علينا ان نتعلم اللغة السريانية لنتمكن من قراءة «الرسائل» في القداس ، ومن مساعدتهما في الجنازات . وقد قررا ان يعطيانا درساً لمدة ساعة واحدة ، مرة واحدة في الاسبوع . وذلك نهار الاربعاء بعد الظهر .

وسرعان ما وجد اهلنا بهذا «العلاج» المسكّن ، عزاء بحيث ارتاحوا مـن

عزابنا لهم في ذاك الوقت .

ومع الايام توصلت' وأحد رفاقي ان نحفظ الالف ، باء... (اولاف ، بيت ، كومال...) — باللغة السريانية مع اتقان لفظ العبارات .

وكان في الكنيسة كتـاب «رسائل» باللغة العربية الى جانب الكتاب الآخر باللغة السريانية او الكرشونية على الاصح ، فاخترت' ، ذات يوم ، في «الرسائل» العربي ، الرسالة التي تتلى يوم احد الشعانين ، وتغيبتها ؛ وبعد ذلك صرت اجرّب ان اقابل بين الالفاظ العربية ، والالفاظ الكرشونية في «الرسائل» الثاني الى ان توصلت ان احسن قراءة تلك «الرسالة» تماماً في اللغة الكرشونية . ولا يخفى بان اللغة الكرشونية تنحصر بان تكون الحروف سريانيـة واللفظ عربياً . وصممت النية ، بأن اقرأها وقت القداس علناً ، امام الجماهير الغفيرة ، وكان عمري آنذاك سبع سنوات ، وربع السنة .

ولكن رفيقي عزّ عليه ذلك ، واصبح يحاول ان يقرأها هو . فكانت النتيجة ان نشبت بيني وبينه معركة دامية في باحة الكنيسة ، قبل القداس ، فجاء الكاهن ومنعنا من قراءتها يوم ذاك وكلّف شيخاً مسناً ليقرأها بدلاً منا .

«خي شلح» : على اني فيما بعد ، اصبحت' «محتكر الصنف» وحدي اذ صرت كل يوم آتي الى القداس باكراً لاقرأ «الرسائل» نكاية برفيقي ، فاجد بذلك لذة لا توصف .

والجدير بالذكر ان رفيقي هذا هو ذاته المدعو جورج ... الذي جرت بيني وبينه حادثة الكذبة الاولى التي سبق وصفها .

ومع الايام ، اتقنت اللغة الكرشونية من درسي الخاص .

واليوم عندما اقف على «القرّايه» ، وقت الجنازات ، يظن بعض الناس بانني «خي شلح» ، مع انني ما فكرت يوماً من الايام بان ادخل ديراً او اعمل راهباً او خوري ، لا سمح الله . مع احترامي لهم .

اقول ذلك بالرغم من ان اثنين من اخوتي اصبحا كاهنين واحدنا راهباً واثنتين

من شقيقاتي راهبتين . . .

بيد انني قبل مواصلة البحث فيما صرت اليه اليوم يجب ان لا انسى مرحلة غير قصيرة ، تبدأ منذ انتقالي من مدرسة الراهبات الى معهد الاخوة المريميين في جونيه .

٢ — عهد السرتفيكا .

وكان يوم الدخول معيناً للخارجيين يوم الثلاثة . ولما كانت رغبتي شديدة لأذهب من اليوم الاول ، نهضت باكراً ، وطلبت من والدي كي يصحبني الى المدرسة قبل ان يذهب الى عمله .

الا ان جدتي التي كانت تعتقد بان من يبدأ بعمل ما ، يوم الثلاثة ، لن يتوفق ، جرّبتْ ان تُقنع والدي ليؤخرني الى يوم الاربعاء ، فنزل عند رغبتها . وبقيتُ طيلة ذاك اليوم كالضائع ، وخلته اطول من يوم الجوع كما يقول المثل . وقضيت ليلة الاربعاء في قلق وأرق حتى الصباح . ولكنه كان صباحا جميلاً اذ لم يقرع جرس الساعة السادسة حتى كنت مع والدي جالساً في بهو معهد الفرير ننتظر وصول رئيس المعهد للتفاهم معه .

واذ بالرئيس يحضر والابتسامة ملء شفتيه ، فحيانا بلطف ما بعده لطف ... وتفاهمنا على الراتب ... ثم قدمت امتحاناً فتقرر قبولي في الصف العاشر لابدأ دروسي عن جديد ولا سيما باللغة الافرنسية .

* * *

في العاشر باء : ودخلت الصف يوم الاربعاء وكنا عشرين تلميذا ، وبعد اسبوع ، اصبحنا ثلاثة وستين . فقسمتنا الادارة الى صفين . وكنت مسرورا كثيرا في صفي — العاشر باء — بحيث تكونت بيني وبين الدرجة الاولى صلة قرابة متينة طالما حسدني رفاقي عليها ...

في التاسع : ولم يكن سروري في الصف التاسع ، في السنة التاليـــة ، اقل منه في العاشر . وفيما اذكر من هذا الصف ، قصة صغيرة تلاها معلمنا في بدء السنة ، تشجيعاً لنا وهذا ملخصها :

«ان تلميذا ابتدأ بدرس اللغة اللاتينية من الصف التاسع بدون معلم مدة تسع

سنوات – فكان يحفظ كل يوم ثلاث كلمات فقط بطريقة من محل الدرس الى الحوش...» فصفقنا له وشرع كل منا يرويها الى عارفيه خارج المدرسة ...

في الثامن : ونظرا لتفوقي في التاسع حاولت ، قبل دخول الصف الثامن ، ان «اقفز» الى السابع فلم يقبل الاخ المدير بل نصحني ان ابقى في صفي لراحتي في المستقبل ، فسكتُ ولكن على مضض ، وقلما عدت اجتهدت كما كنت قبلاً .

ابناء الجيران : وكان ، بين رفاقي ، جمهور من ابناء جيراننا في «غادير» ، مولعاً «بعمل الطائرات الهوائية» فحاولت الاقتداء بهم الا ان والديّ كانا قاسيين عليّ وعلى اخوتي وقلما كانا يسمحان لنا ان نترك منزلنا اثناء العطلة يومي الخميس والاحد .

ولكن هل يعقل ان يبقى الولد محصورا كأنه في علبة ، طيلة ايامه ؟

فما العمل اذاً ؟

جارنا انطوان : لقد كان لنا جار ، من جيلنا ، وحيد لوالديه بين شقيقتيه . وكان والداه يتساهلان معه اكثر مما يتساهل والدانا معنا . وكان بيننا وبينه صداقة مخلصة ، فاتفقنا بان نجعل «مربض خيلنا» في غرفة مجاورة لمنزله . ولحسن الحظ ، لم يمنعنا والدانا عن معاشرة هذا الرفيق الامين . فصرنا نجتمع عنده طيلة ايام العطلة ، ونسهر في المساء ايضاً . وكان والداه يلاطفاننا ويرغبان الينا كثيراً لنبقى مع ولدهما فاصبح منزلهما ملتقى التلاميذ وبجانبه مستودع لوضع «الطائرات» التي كنا نصنعها خفية عن اهلنا و«نطيّرها» من على سطح منزلهما ايضاً .

وكنا مرة نطيّر «طيارة» كبيرة» ، وكانت خادمة واقفة على سطح منزل مجاور ومرتفع ، وحاملة بين ذراعيها ولدا صغيراً ، فشرعت والطفل تحدقان بالطائرة المرتفعة في الفضاء ...

وعلى غفلة منها قبض الطفل الصغير بيديه على خيط الطائرة الممتد في الفضاء وافلت من بين ذراعي الخادمة وارتفع مع الخيط ثم فقدَ قواه وترك الخيط وارتمى على الارض وتدحرج على سلّم السطح ... فبدأت الخادمة «تولول» وتستغيث واسرعت وراء الطفل الذي استقر في اسفل السلم مغمياً عليه . وكان والداه غائبين عن المنزل

فاعطته الخادمة الاسعافات الضرورية بينما نحن امرعنا بجمع الخيطان لانزال الطائرة التي اخفيناها ثم اختفينا دون ان نخبر احداً بما حدث . وكان الطفل لا يحسن الكلام لصغر سنه فلم يتمكن والداه عندما حضرا ، ان يعرفا الحقيقة تماماً ولا استطاعا ان يعرفاها حتى اليوم . فشكرنا الله على سلامة ذاك الطفل الذي اصبح اليوم شاباً مثقفاً ومستقيماً...

الى الوراء : على ان التهائي باللعب و«بالطائرات» جعلني بين المتوسطين في صفي. فقال لي احد اساتذتي يوماً: «يا نبيه... كل ما يرى وكل ما النا لورا»... فخجلت وحاولت ان استعيد مواقفي السابقة لاعوّض عن هفواتي...

رفيقي منصور : وبقيت على اتفاق تام مع جاري انطوان . وبالاضافة تكونت بيني وبين رفيق آخر يدعى منصور ، صداقة مخلصة ايضاً ولكن هذا الاخير كان جاري في الصف ، وفي الدرس فقط .

القصاص المزيّف : وحدث لي مرة وانا في الدرس ان فتحت طبقتي ، بعد ان طلبت اذناً من الاخ المناظر ثم اغلقتها ، فظن منصور اني فتحتها بدون اذن ، وحاول ان يفتح طبقته بدون اذن ايضاً فافلتت من يده واحدثت ضجة قوية ازعجت التلاميذ، فظن الاخ المناظر باني انا الذي افلتت الطبقة من يده ، فناداني وامرني كي احفظ له عشرين سطراً دون ان يسألني من احدث الضجة؟ فاطعته، وعدت الى مكاني ، ولم اترك منصور يشعر باني تقاصصت بسببه...

ولم يكتف الاخ المناظر بذلك بل وضع لي علامة عاطلة في السلوك وتلاها الاخ المدير يوم الاحد امام التلاميذ. عندئذ ترقرقت من عيني دموع التأثر والخجل كما وان الاخ المدير استغرب تغيير سلوكي فاشار الي ، بعد قراءة العلامات ، لاذهب الى مكتبه ...، وما ان امتثلت امامه حتى سألني بدهشة : ما السبب ؟ فترددت بالجواب خوفاً من ان يقاصص رفيقي وصديقي منصور ... ولم اخبره الحقيقة الا بعد ان اكّد لي بانه لن يقاصص غيري من الرفاق. فسرّ مني الرئيس، وفي الاحد التالي ، روى الخبر امام كل التلاميذ فصفقوا فوراً وتعزيت انا قليلاً وفي ختام كلام الرئيس عني، تمنى لو ان كل الصداقات تكون مثل صداقتي لرفيقي

منصور .

الغرام بالتاريخ : ومن الحوادث «التاريخية» التي اذكرها ، ما جرى لي ، وانا في السابع ، حيث توصل احد معلمينا ان يجذبنا الى الاهتمام بدرس التاريخ اكثر من سائر المواد . وهذا ملخص ما جرى : مرض احد رفاقي فتغيب شهرا ونصف الشهر ، وعاد يوم كان عندنا مسابقة في التاريخ وكان جالساً بجانبي فنقلته مسابقتي بكاملها ، واعتنى بترتيب مسابقته اكثر مني ، واذا بالنتيجة يظهر اسمه في الدرجة الاولى واسمي في الدرجة الثانية ، فهمس احد رفاقي في اذني : حقاً

«ان للحـــظ كيمياء اذا ما مسّ كلباً احاله انسانا» .

على انني قلما تأثرت ، بل ضحكت ، مع الذين ضحكوا . كيف لا والنتيجة الحقيقية قد فهمها الجميع ؟.

صف الشهادة : وفي السنة التالية لم يرجع احد من اولاد جيراننا الى المدرسة ، واصبحت وحدي اذهب صباحاً ، واعود مساءً ، فلامَ الجـيرانُ والديّ لانهما يواصلان ارسالي الى المدرسة ، وكأن حسدهم الزائد لي ، جعلني امرض مدة اربعة اشهر — هذا حسب اعتقاد جدتي — وعندما شفيت ، والحمد لله ، اصبحت خائفاً من الرسوب في الامتحان الرسمي في آخر السنة . وكان الامتحان آنذاك ، لا يزال على مرحلتين كامتحان «البروفه» و «البكالوريا» اليوم ، فالذي ينجح بالخطي ، يتقدم للشفهي . ولم يكن يجري امتحان في الملحقــات ، بل كان على كل الطلاب ان يهبطوا الى العاصمة اللبنانية لتقديم الامتحـــان الرسمي . . .

وهوّنها الله علي ، واشفاني ، وابقاني سالماً حتى نهاية الصف السادس . . .

* * *

الدينونة الاولى : وصباح يوم الامتحان صعدت السيارة باكرا مع بعض رفاقي واتجهنا الى بيروت فوصلنا امام «مدرسة البنات الجديدة» في حي الاشرفية ، قبل موعد الامتحان ببضع دقائق ، وكانت جماهير الطلاب هناك متراصة . . ،

ولم البث ان سمعت الجدل فيما بينهم عن قضايا حسابيــة ، وتقديرات في المواد

«الفحصية» : هذا يؤكد ان مشاكل الحساب ستكون عن «الهندسة» . وذاك يثبت انها ستكون عن «القاعدة الثلاثية» . وآخر يعتقد انها ستتناول الاثنتين معاً هذه السنة ...

وقد بلغ الجدل الى اساتذة ، او بالاحرى - كما اذكر واظن - الى طلاب جاوز عمرهم عمر الاساتذة .

وفيما نحن على تلك الحال ، سمعنا صوتاً ، فأملنا الطرف نحو باعثه ، فاذا هو شاب ينادي ويومىء بيده ان ائتوا الى الجهة اليمنى . فاطعنا ، ومررنا كالغنم التي تساق للذبح دون ان ننبس ببنت شفة . ومررنا ، كلٌّ بدوره ، حسب النمرة المعطاة له ، امام طاولة جلس اليها استاذ اخذ مني التذكرة المدرسية هنيهة ، ثم اعادها مع نمرة جديدة هي نمرة غرفة الامتحان ، دون ان افهم حينئذ معنى هذه «العملية» . وهنا فسح لي المجال للدخول ، فدخلت الدار «العامرة باهلها المرشحين» واندمجت بين زملائي ذهابا واياباً الى ان سألت عن قاعة «نمرتي» رجلاً ضخم الجثة ، لطيف الحديث ، فاشار اليها بابتسام ، فشكرته ودخلتها ... والرعب يملأ فؤادي.

وكان مقعدي قرب شاب قال لي بانه من حلب ويتعلم في بيروت . وما ان قلت له اني في معهد «فرير» جونيه حتى بادرني بقوله :

«حظينا» ،

وفرك يديه ،

فحدقت به متحيراً ، وقلت له مستعلماً ببلادة لا تزال تصحبني في حديثي حتى اليوم : (بمَ حظيتَ ؟)

فاجابني بغلاظة نادرة الوجود : (انتم تلاميذ (الفرير) اقوياء في الحساب وفي الاملاء... ، يجب ان تريني مسابقتك) .

عجبت من هذا الكلام لا سيما وقد سمعت مراراً ان النظار في (السرتفيكا) شديدو الحرص على انزال العقاب بمن يخالف قوانين الامتحانات ، فاجبت (صاحبنا) :

- لا ! انا لا (انقّل) احداً .

- فقال : اذا لا (تنقّلني) اضربك والله عندما تخرج من الامتحان . هدّدني

بالضرب ؟ وما الذي يصدّه عن القيام بمثل هـذه المهمة وهو ابن عشرين سنة او اكثر يعلن الحرب على ولد يكاد يبلغ الثانية عشرة من عمره ؟!

راعني تهديده ! فحولت نظري عنه وجلست مكاني لا اجيب الى ما يقول . غير انه زاد في الالحاح والوعيد وكاد يرتفع صوته ويبلغ آذان النظّار .

لكنى استدركت الامر فاومأت اليـه خفية كي ينظر الى مسابقتي ، وينقل عنها ما طاب له ، دون ان يسألني البتة .

اجل ، لقد اقلقني ارتفاع صوته و(عنعناته) ، وخفت اذ ذاك على نفسي لا من الضرب فقط بل مما هو اهم من ذلك ، خفت من الطرد خارج الدار ومما يجرّ عليّ من ويلات الامتهان والعار ...

وما كان يمنع ذاك المتعنّت عن القول باني انا المذنب لا هو ، اذا ما جاء النظار واستعلموا عن حقيقة الامر ؟!

ولكني احمد الله الذي وقاني شرّ (مجاورة) ذاك الشاب وابدل الوعيـد بشكر قام به (صاحبنا) بعد مسابقة الاملاء :

— (انا صلّحت سبع غلطات عـن مسابقتك . يلزم ان تساعدني ايضاً في الحساب فانجح بفضلك وحدك ، وحياتك)...

لم اطلع على نتيجة فحص ذاك الجار (العنتري) ، ولكني اليوم اتذكر فاتبصر : ما قيمة شهادته اذا كان من الفائزين ؟

هب انها رفعته الى وظيفة ما ، فهل تضمن له الثبات في وظيفته ، وهي — اي الشهادة — فاتحة مشؤومة له ، لا تنذر الا بالسلب والخيانة ؟

ام انها ترمي به الى البطالة حين يتقدم من يقوم بتلك المهمة التي وكل اليـه امرها قياماً افضل علماً وامانة !

رحم الله القائل : ان للحق لا للقوة الغلبا ...

* * *

فون ديز : هذا ما حدث في الامتحان الخطي . اما في الامتحان الشفهي فقد شاءت فاحصة ان تضع لي ، على اسئلة الحساب ، عشر علامات عـلى عشرة بينما

رفيقتها تريد ان تضع لي تسع علامات فقط ، وكأني بها شاءت ان تظهر (براعتها) و(فلسفتها)... ولدى الحاح الفاحصة الاولى وتمسكها برأيها ، التفتت الفاحصة الثانية اليّ وقالت : ربون إس كون دي سيت إتروا فون تونز او فون اونز ؟

«Réponds : Est-ce qu'on dit 7 et 3 font «t'onze» ou font, onze»

فاجبتها فورا (فون اونز) ... ، فضحكت وضحك رفاقي الواقفون حولي ، بينما انا انخجلت ، واستغربت باعتبار اني لم اسمع ولا مرة واحدة لفظة (فون تونز) ، ولم انتبه بان كان عليّ ان اقول (فون ديز) . وبالنتيجة اتفقت الفاحصتان ووضعتا لي تسع علامات ونصف العلامة على عشرة .

* * *

عجب العجائز : وبعد يومين وصل الخبر الى المعهد باننا كلنا نجحنا . وشاع في حيّنا انني اكملت دروسي ونلت (الشهادة) بينما لا ازال البس طقما قصيرا ، لصغر سني واصبح العجائز يحدقون بي باستغراب وعجب كأني (فرخ) الله لاسمه السجود ، مقيم بينهم...

واوشكت العطلة ان تنتهي والآراء لا تزال تتضارب بين افراد عائلتي في هل من الضروري ان اواصل دروسي حتى «البروفه» ام يجب ان اكتفي «بالسرتفيكا» واترك المدرسة لابدأ اتمرّن على العمل في محل تجاري ؟

وبقي الحال على هذا المنوال حتى بعد افتتاح المدرسة باسبوع ، فكان الله بعوني ودخلت الصف الخامس . وكان رفيقي منصور المذكور تأخر كذلك فصادف دخولنا معاً الى الصّف ، وجلسنا بجانب بعضنا على طاولة واحدة ... وكان احد معلمينا فاقداً احدى عينيه ويضع نظارتين سوداوين ... وكل شهر يبدل محلات الطلاب وقد بلغ عددهم اربعة وعشرين طالباً ، فابعدني عن رفيقي وصديقي منصور واجلسني على الطاولة وراءه. وعبثاً التمسنا منه كي يبقينا على طاولة واحدة كما كنا في الصفوف الثلاثة السابقة ، وكاد يقاصصنا بسبب الحاحنا عليه عندئذ اتفقنا على حيلة نصنعها في الصف لنزعجه كما ازعجنا . فعندما وقف منصور ليسمّع امثولته التي لم يكن درسها ، اكتفى بتحريك شفتيه فقط بينما انا ، وراءه،

تقلدتُ لهجته وصوته وبدأت اتلو الامثولة بصوت مرتفع ، فظن المعلم بان منصور ذاته يسمّع امثولته فوضع له علامة جيدة بينما رفاقنا ابتسموا بهدوء هازئين من المعلم ، ومعجبين بصداقتنا المخلصة .

عقلية الخامس : ولا يخفى بان لطلاب الصف الخامس عقلية خاصة في اي معهد كانوا او في اي بلد وجدوا . فالعمر له استحقاقه وتأثيره ، ويجعل الطلاب انذاك يستصعبون الانتباه للشرح والمواظبة على الدرس ، فضلاً عن انهم يكونون حاملين «السرتفيكا» التي معناها «الشهادة» فيظنون انهم انهوا دروسهم لاسيما وان امتحان «البروفه» لا يزال بعيدا وبينهم وبينه ثلاث سنوات . ومن يدري ؟ فكما نجحوا «بالسرتفيكا» فقد ينجحون «بالبروفه» . . .

* * *

درس الكيمياء : ويشاء الله ، بالرغم من «رزالاتنا» في الصف الخامس ، ان يكون مجموع علامات امتحاناتنا السنوية تؤهلنا للصعود للصف الرابع ما عدا ثلاثة طلاب .

وكان احد اساتذتنا في هــذا الصف قوياً بالعــلوم الطبيعية اكثر مما هو قوي بالكيمياء فاصبــح عندما (تعلـّق معه السكة) في شرح الكيمياء و(فورمولاتها) ينتقل فورا الى شرح (الطبيعيات) او بالاحرى ينتقل الى الثرثرة المنوعة بينما الطلاب يظلون صاغين وساكتين دون ان يجرؤ احد منهم ان يطرح عليه سؤالاً ما .

التفوّق بالنـّقل : وهذا ما شجعنا على ان نجعل الطريقة الوحيدة للنجاح في امتحان الكيمياء ، « النقل » . وكنت انا من ابطاله بالرغم من اني كنت فاهماً الكيمياء من الصف الخامس اكثر من رفاقي .

ولكن لماذا اتركهم ينقلون وحدهم ، ويأخذون علامات اكثر مني وانا لم انسَ بعد ما حدث لي في الصف السابع وقت مسابقة التاريخ ؟ . .

وكان المناظر يجمع الكتب من الطلاب قبل وقت المسابقات . على ان هــذه الطريقة لم تمنع بان يظل «النقل» ضارباً اطنابه بيننا . وهذا ملخص ما حدث لي في

آخر السنة اثناء المسابقة في الكيمياء :

لقد علّقت طرفَي ورقتين مطويتين لجهة الطول، بسامير «بينيز» في جهة الطبقة الخارجية السفلية ، وركّزتُ عليهـا غطاء علبة كرتون عريضة، ووضعت فوقه كتاب «الكيمياء» مفتوحاً . وشرعت انقل عنه اثناء المسابقة. وعندما اشعر بدنو المناظر كنت اقذف الكتاب ببطني فيختفي تحت الطـاولة . وعندما يأتي المناظر ويقول لي : قف واعطني الورقة التي تنقل عنها، انكر عليه وجود الورقـة، وكل شيء آخر ، فيحاول التفتيش ، ولكن دون جدوى ...

على انني ، قبـل انتهاء مدة المسابقة بربع ساعـة ، فوجئت بالرئيس يمشي ورائي فقذفت الكتاب بسرعة فتجاوز حدود مساحة «الكرتونه» ووقـع على الارض امام احد رفاقي ، على مسافة مترين. ولكني لم احرّك نظري ، ولا تغيّر لوني فقام المناظر وقال : لمن هذا الكتاب ؟ فلم يجبه احد .

وجرّب ان يفتش فيه عن اسم صاحبه ، فلا اسم عليه . فوضعه على الطـاولة او بالاحرى على المنبر ، امامه وسكت. وبعد عشر دقائـق كرر السؤال: لمن هذا الكتاب ؟ فلم يجبه احد ، وكان وقت المسابقة قد انتهى ، فخرجنا كلنـا من قاعة الصف ، دون ان يأتي احـد ويطلب الكتاب ، فتركه المناظر على المنبر، وخرج برفقتنا الى الحوش للتنزه .

حرامي بشرف : اما انا فتسلقت الدرج من الجهة الشمالية ودخلت الى الصف فاخـذت الكتاب ووضعته في طبقتي ثم نزلت الى الحوش حيث اجتمعت برفاقي ومعلمي وانا بحالة كأني لم ارتكب ادنى مخالفة .

عند انتهاء النزهة ، صعدنا الى الصف فلم يرَ المعلم الكتاب على المنبر فاشار الى تلميذ ليذهب ويسأل الرئيس عنه ، فلم يكن للرئيس ادنى علاقـة بالامر اذ ذاك، فامرنا المعلم انقف فوراً ونترك «طبقاتنا» مغلقة الى ان يأتي هو ويفتحها بيده فيرى بطبقة «من» وضع الكتاب؟!

واذا به يجده بطبقتي انا فدهش الجميع، ودهشت انا، وظننت باني «علقت بالفخ» كما علقت سابقاً تحت يدي الراهبة ماري مادلين . وكثيراً ما خفت ، ولكني لم

البث ان اظهرتُ استغرابا عجيباً وسبقت المعلم الى السؤال: من وضع هذا الكتاب في طبقتي ؟ .. فلم احظَ بجواب من احد .

وكان المعلم يثق بي كما كانت تثق بي الراهبة الاخت فكتوار على اثر كذبتي الاولى ، فصدقني .

ولما رأى بان رفاقي لم يطالبوا بالكتاب ... ولا احد غيرهم جاء يطلبه ... ولما كان هو لا يريد ان يحتفظ به بحيث ليس له ، فقد سكتَ هنيهة ثم قال لي امام رفاقي .

«لك نصيب بهذا الكتاب فخذه انت ...»

وحاولت ان امانع ، فالحّ عليّ لآخذه ، فاخذته واصبح ملكي ، او بتعبير آخر عاد اليّ بصورة شرعية وهزلية معاً وان يكن عن غير قصد .

***

الاعيب لا تحصى : أجل، ان الاعيب الطلاب على مقاعد الدراسة لا تحصى لان التلاميذ، وانا كنت منهم، لا يعرفون قيمة المدرسة الا بعد ان يتركوها ولطالما سمعنا ولا نزال نسمع كثيرين يتأوهون علناً ويهتفون : «آه ... ما احلاها ... تجدد الآمال بي ذكراها ...»

***

صيت مثل الزفت : وكان من نصيبنا ان يصبح صيتنا مثل الزفت في الصف الرابع كما في الصف الخامس قبله .

صف البروفه : ولو لم يمن الله علينا في الصف الثالث باخ قدير بكل المواد المتعلقة ببرنامج «البروفه» ، كما هو قدير باساليب التربية والتهذيب لكنا ، على ما اظن ، عفنا العلم وتركنا المدرسة قبل الوصول الى نهاية هذا الصف .

فقد كان ذاك الاخ يعلمنا اللغة الافرنسية، والرياضيات والعلوم، والجغرافية ، ما عدا اللغة الانكليزية ، واللغة العربية ، والتاريخ الافرنسي .

وكان استاذنا في التاريخ الافرنسي هو استاذ لصف الفلسفة ايضاً . وكان يأتي

الى صفنا مرة واحدة كل اسبوع ، ولم يكن له معرفة سابقة بالطلاب لانه كان اول سنة يعلّم بمعهد الفرير .

هو انا، وانا هو : وبعد مضي اسبوعين على دخولنا المدرسة ناداني باسمي ، لاقف واستمع امثولتي ، فنهض رفيقي المدعو م.ك. حالاً ووقف ليسمّع بدلاً مني ، فظنه الاستاذ بانه انا.

ولما كان ذاك الرفيق من اصدقائي فلم ارد ان يتقاصص بسببي ، وبقيت جالساً مكاني ، وظل سائر الطلاب ساكتين .

وساله الاستاذ سؤالاً مهماً فلم يحسن الجواب ، فاشار اليه كي يكتبه ثلاث مرات.

وتقيد القصاص باسمي انا لا باسمه هو ، وبالتالي وُضع لي انا (صفر) على عشرين.

و (زيادة الطين بلّة) فقد اظهر لي رفيقي «الغيور» و «المجتهد» بانه لن يكتب القصاص. وكان من قوانين المدرسة ان من لا يعمل قصاصه يُزرب بعد الظهر يومَي الاحد والخميس فرأيت نفسي اذ ذاك ملزماً ان اكتبه ، فكتبته واعطيته لرفيقي المذكور حتى يقدمه في حينه ، ففعل .

وفي الاسبوع الثاني ناداني الاستاذ ذاته ، فوقف رفيقي ذاته قبل ان اقف انا ، بالرغم من اني ، في المرّتين ، كنت حافظاً امثولتي تماماً ، ولكني لم اشأ ان اضرّ رفيقي فسأله الاستاذ عن الـ Directoire فاجابه عن الـ Convention «فرقعه» صفراً وامر بزربه بعد الظهر ، وسجّل كل ذلك الى جانب اسمي انا ، فالتفتَ رفيقي ذاته اليّ ، والابتسامة على شفتيه ، وقال لي : «صحتين» فقهقه كل رفاقي . ولم يلبث ان احمرّ وجه استاذنا ، واذناه ايضاً ، وامر بطرد رفيقي المذكور من الصف وصرّح بانه لن يقبله الاّ باذن خاص من المدير ، فاطاع رفيقي امر الاستاذ واتجه نحو مكتب المدير .

وما كان من الاستاذ المسكين «فوق الدكّة شرتوته» ، الاّ ان ارسل مع رفيق آخر ، الى المدير ، «ربوراً» مختصراً ومنظماً بحقي انا — اي باسمي انا .

وكان الرفيق بطل «الرواية» المدعو م.ك. منذ وصوله الى امام المدير طلب منه اذناً ليصعد الى سريره في محل المنامه بحجة انه يشعر بالم في رأسه ومعدته ...

ولدى وصول الرفيق الآخر الناقل «الرابور» باسمي الى غرفة المدير كان الرفيق م.ك. قد حظى بموافقة المدير وبدأ يتسلق الدرج لمحل المنامة ، واذ قرأ المدير (الرابور) باسمي استغرب الامر لان ليس من عادتي انا ان ارتكب مثل هذه المخالفات . واسرع الى صفنا وناداني فانتفض استاذ التاريخ وقال له فوراً : لقد بعثته لك منذ خمس دقائق مع (رابور) بحقه نقله لك تلميذ آخر .

وكان هذا الكلام كافياً ليدفع الطلاب الى اطلاق ضحكة قوية ارتجت لها جدران المدرسة ، بينما انا بقيت جالساً مكاني ، وبحالة طبيعية كأن لا شيء يحدث حولي ، فاحس المدير اذ ذاك بان في القضية ملعوباً ، فأومأ لآتي اليه .

ثم غمز الاستاذ ليسمح لي بالخروج من الصف ، لكن في الحال قُرع الجرس مبشراً بانتهاء ساعة الدرس والخروج الى النزهة . فعدل المدير عن طلبي ، ثم نصح كل طلاب الصف بان لا يتحدث احد منهم ، وقت النزهة ، بما جرى في الصف .

وكأن الاستاذ شعر بخطورة الموقف فاسرع وقدّم استقالته من الصف الثالث قبل ان اروي انا للمدير تفاصيل الحادثة بالتمام . واكتفى بان يظل استاذاً للفلسفة فقط . وهكذا كانت تلك الساعة «التاريخية» آخر (ساعاته) عندنا .

اما جزاء رفيقي المدعو م.ك. فكان ان طُرد من المدرسة لمدة اسبوع تأديباً له ، مع انذاره ، عند عودته ، بانّ ادنى مخالفة يرتكبها تكون كافية لطرده نهائياً من المعهد .

ولكنه قضى السنة كالملاك ولم يرتكب ادنى مخالفة .

* * *

تاريخية التاريخ : والجدير بالذكر انه ، بعد قبول استقالة استاذ التاريخ من صفنا ، جاءنا المدير ذاته استاذاً للتاريخ . وكان قاسياً لدرجة لا تحد . وكأنه كان يحاول ان ينتقم لزميله السابق ، فاصبح الطلاب ، وخصوصاً الداخليين ، يحملون كتاب التاريخ تحت ابطهم كل مدة الاسبوع ليتمكنوا من حفظ الامثولة كما يجب وينخلصوا من القصاص الصارم .

وكان من نتيجة هذا «الانقلاب» انّ احسن العلامات التي حصلنا عليها وقت الامتحان ، كانت على مادة التاريخ .

اما النجاح النهائي فقلما كان باهراً. ولا عجب فشهادة «البروفه» كما هو معلوم، تدرس موادها بمدة ثلاث سنوات، على الاقل، بعد «السرتفيكا» لا بمدة سنة واحدة. وكأن السنتان اللتان اضعناهما في الصفين، الخامس والرابع، قد انتقمتا منا في الصف الثالث واذا بالنتيجة تظهر على الوجه التالي :

تقدم للفرع الفرنسي اربع عشرة طالباً من اصل ستة وعشرين فنجح ستة فقط وتقدم للفرع اللبناني اثنى عشر طالباً فنجح اثنان وهما: طالب من حلب وحامل هذا القلم .

وكانت طريقة ايصال الخبر اليّ باني نجحت ، على الوجه التالي :

بينما كنا ننتظر واكثرنا قاطع كل امل بالنجاح نظراً لصعوبة الامتحان ، اطل الاخ فرانسوا جوزف في الساعة السابعة من صباح يوم الجمعة وصعد الى المنبر في قاعة الدرس ، وبيده قلم ، واشار كي اقترب منه ، فلبّيت طلبه ووقفت بجانبه على المنبر ، فجلس على الكرسي وكتب على غلاف ابيض ، امام نظري، العبارة التالية وباللغة الافرنسية :

لقد نجحت بالبروفه اللبنانية». Vous avez réussi au Brevet Libanais «

وذلك دون ان يتكلم ، فظننت باني نجحت وحدي لانه لم يتصل اي خبر بسائر رفاقي الجالسين حولي في قاعة الدرس . فشكرته على بشارته ، وطلبت منه ذاك الغلاف ، فلم يبخل به عليّ ثم طرت كالنسيم من امامه واتجهت الى منزلي الوالدي لاخبر اهلي ...

ولم اعلم بنجاح رفيقي الحلبي الذي كان داخلياً الا في اليوم التالي عندما كنت اتأهب للنزول الى العاصمة اللبنانية لتقديم الامتحان الشفهي ..

وكان مجموع الناجحين في تلك السنة ، اثنان وسبعون طالباً وطالبة فقط من اصل اربعماية وعشرين .

على اني حتى الآن ، لا ازال محتفظاً بذاك الغلاف الذي كتب عليه الاخ فرنسوا جوزف «البشارة» الاولى بنجاحي ..

* * *

عجب العجاب : والله يعلم كم كانت دهشة جيراننا وجاراتنا ، غريبة ، هذه المرة ايضاً ، ولكن ، لا لاني نجحت فحسب بل لاني اخبرتهم بان الفتيات جلسنَ بجانب الفتيان في غرفة واحدة ، وعلى مقعد واحد ، اثناء الامتحان الخطي ... فقالت احدى تلك الجارات : «يه ... شو هالعصر يلي وصلنا عليه ...» وقالت الاخرى فيما قالت : «... وكيف جمع فكركم وقدرتو تنجحوا ؟ ...» الخ

* * *

غياب منصور : ولم يكن صديقي منصور بين رفاقي في الصف الثالث بحيث حدث خلاف بينه وبين استاذ الصف الرابع خلال السنة السابقة ، ففضّل ان ينقل الى معهد عينطوره الذي كان انذاك ، يهيء طلابه لشهادة البكالوريا فقط .

* * *

قاتل الله الحسد: انما كان بيننا فتى غني او بالاحرى ابوه غني كبير ، ومتكبر في الوقت نفسه . وكان هذا الفتى ضعيفاً باللغة العربية ، فتقدم الى امتحان «البروفه» الافرنسية ، ولسوء حظه صدرت نتيجة «البروفه» اللبنانية قبل الافرنسية . ولما علم والده باني نجحت مع تلميذ حلبي فقط ، ظن بان ابنه لم ولن ينجح ، فانهال عليه بالشتائم واللعنات ، فسمع الجيران والاقرباء ، وهرولوا يستفسرون ما القصة ؟ وما السبب ؟ وعلى الاثر اسرع بعضهم الى منزلنا يسألني عن حقيقة الامر ...

وظل ذلك الوالد يوبخ ابنه ، وكاد الابن يختنق من شدة التأثر ، الى ان ، في اليوم التالي ، صدرت نتيجة «البروفه» الافرنسية واسم ابنه بين الناجحين ، فتنفّس الصعداء وانتهى المشكل ، حالياً ، عند هذا الحد .

* * *

الكَيف في الصيف : وذهبت الى العطلة الصيفية ، وقلبي يرقص طرباً ، وابتهاجاً وبعد ان استرحت مدة اسبوعين بدأتُ بحفظ القصائد العربية القديمة والقصائد

الافرنسية الشهيرة لكبار الشعراء ومنهم لامرتين ، وموسه ، وهويغو ، وبعض فصول من روايات كورناي وراسين ، وما وصلت الى آخر شهر آب حتى كنت تغيبت معلقات : امرؤ القيس وطرفة وزهير وعنترة ، وبعض قصائد للنابغة واخرى للمتنبي وابي نواس مع قصيدة الفرزدق لزين العابدين . هذا مع عدد لا يستهان به من اشهر قصائد لامرتين بنوع خاص . ثم انصرفت عن الكتب منذ اول ايلول رغبة في التنزّه والاستجمام قبل انتهاء الصيف .

واثناء احدى نزهاتنا التقيت برفيقي منصور مع رفاق اخر ، في حرش من احراش ميروبا المصيف الكسرواني الشهير .

وكان بصحبة منصور جمهور من الرفاق وكلهم من جياننا ، فجلسنا ، بعد المصافحة ، تحت ظل الاشجار ، بينما هواء ميروبا ينقل الى صدورنا كل ما في الرياحين من طيب ، وكل ما في السنديان والصنوبر من قوة وحياة .

ثم شربنا من مائها الذي اذا شرب منه السقيم ، عادت اليه العافية ، واذا شرب منه المعافى «بوّرده» قلبه وانتعش .

فانتعشنا ، وتحمسنا ، وردد احدنا بعض ابيات من قصيدة لشاعر الضيعة اذكر منها :

عاليه ، صوفر ، وبحمدون ... زحله ، جديتا ، وخريزات
حراجل بسكنتا وريفون ... ميروبا ، وكل الجهات
لو دوّرت بكل الكون ... ما بتوجد هيك مناخات
بتعطي صحّة ، بتعطي لون ... ولو كان الجسم تلفان

* * *

ومن شدة ما كان اجتماعنا في تلك الساعة مبعثاً للسرور والانشراح ، اتفقنا ان نجتمع كل اسبوع مرة ونقوم برحلات بعيدة . ولم يمض الاسبوع الاول حتى كنا حققنا رغبتنا .

ولكن شاءت الظروف مرة — وللظروف احكام — ان اتخلف انا ورفيقي منصور عن رحلة قام بها كل رفاقنا الى الارز لمدة ثلاثة ايام ، فبقينا وحدنا .

واذا بنا تقودنا اقدامنا، في ليلة من تلك الليالي المقمرة الثلاثة، الى حرش مجاور لفندق كبير محاط بالكروم، والبساتين، والزهور، وقد جلس في باحته جمهور من السيدات، والآنسات، والرجال، حول طاولة كبيرة، وتحت خيمة كبيرة ايضاً - يلعبون بالقمار - ويتبادلون من وقت لآخر، الابتسامات، والنكات الطريفة. ففاش كل منا منديله - او محرمته - وجلسنا على جزع شجرة صنوبر، وشرعنا نراقب اللاعبين عن بعيد، وهم غير شاعرين بوجودنا ... وفي الوقت نفسه نستعرض جمال الطبيعة الساحرة في تلك الليلة الجميلة ...

فهبّت نسمة هواء باردة، ناعمة ذكّرتنا بابن الرومي حيث يقول :

هبّت سحيراً، فناجى الغصن صاحبه موسوساً، وتداعى الطير اجلالا
ورقٌ تغنّي على خضرٍ مهدّلةٍ تسمو بها، وتعانق الارض احيانا
وتخال صاحبَها نشوانَ من طربٍ والغصنُ من هزّه عطفيه نشوانا.

وعلى اثر افتة الى السهل الفسيح الجميل، مرّت بخيلتي هذه الابيات الشهيرة الخالدة لرشيد نخله (١)

والسهل عشبو كان يموج موج الحرير والليل من ضو القمر قطعة رخام
والليل من ضوّ القمر لونو امحى حتى الذّهب خالط الفضّى من الضُحى
وراح النسيم عالسهل يمشي السوحا واللوحا لردام « محسن » والكمام.

ولم يكن اعجاب رفيقي بهذه الابيات باقل من اعجاب امير الشعراء احمد شوقي عندما اطلع في منزل المؤلف على رواية (محسن الهزان) اذ كانت لاتزال مخطوطة سنة ١٩٢٥.

واذا برفيقي منصور يتذكر قصيدة لامين نخله، تمثل حالنا انذاك من بعض النواحي وقد جاء فيها :

ربما في الكروم ايقظني الصّحب وليل الكروم ليل قصير
قمت في الليل، والعناقيد والاكؤوس نورٌ، واوجه الصحب نور
ثم قالوا: وحقٍ من كوكب الليل افقْ، فالنجوم كادت تطير ...

وما ان توقف رفيقي هنا، وهو آسف على ضعف الذاكرة التي خانته، ومنعته من مواصلة تلاوة ما تبقى، حتى مرّ في خاطري ابيات اخرى لامين اذكر بعضها الا وهي :

١) وهي من رواية «محسن الهزّان» التي طبعت المرة الاولى سنة ١٩٣٧ على نفقة المحامي المغفور له توفيق خيرالله .

يا نرجساً ، نعسان من وله ٍ قُم من فراش الغنج غازلنا
يا ورد ، يا ابن الرّقة اختبأت في ظلّك العشاق ، خبّئنا
يا عشب ، يا نعش الوهاد ويا تاجّ المروج ،وبحرها الادنى..

هذا ما اذكر اننا رددناه في تلك الليلة التاريخية بيننا كما نأسف لاننا لم نصل في دروسنا الى درس وزن الشعر وبالتالي فلا نقدر ان نقتدي بالشعراء فننظم ما يجيش في صدورنا من عواطف وما يموج في رؤوسنا من افكار تجاه جمال الطبيعة الزاهية ، وعظمة الله عزّ وجلّ .

على اننا صممنا النية ان لا نتردد من الانتباه ، كل الانتباه لشرح وزن الشعر في السنة القادمة في الصف الثاني عربي حيث يُبدأ بتدريسه وشرحه...

***

وقد حدث كل ذلك بيننا و « اصحابنا » في ساحة الفندق لم تنته ِ لعبتهم ، بل ظلوا يقامرون حتى دقت الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، فنهضوا وتوجهوا الى غرفاتهم بخطى متثاقلة ما عدا ثمانية ، بينهم مهندس وتاجر ومحام واربع سيدات وفتاة واحدة . وكان هؤلاء الثمانية ينامون على سطح الفندق ، فصعد كل الى سريره بينما النعاس يكاد يهلكه .

وكان لنا معرفة سابقة بهم وبصاحب الفندق ايضاً فرغبنا في تلك الليلة ان نمزح معهم فنهضنا وقطعنا الحبال الرفيعة الممتدة من شجرة الى شجرة لنشر الغسيل في الحرش ، وصعدنا الى سطح الفندق بعد مرور نصف ساعة فرأينا الاشخاص الثمانية مستغرقين في غفوتهم فربطنا بعضهم مع البعض بواسطة الحبل : هذا برجله وتلك بزندها ، والاخرى بشعرها ..الخ

ومكنّا ربطهم بالحبل ، كل بسريره ، ثم باطراف السطح ايضاً.. وذلك بكل هدوء ،وعلى مهل ... فلم يفق احد منهم ولا احسّ احد بشيء ...

ثم نزلنا عن السطح وعدنا الى الحرش حيث كنا ، فجلسنا ، وقد نسينا النوم ونسينا الاكل ، والشرب ... وظل الاشخاص الثمانية مستغرقين في نومهم حتى قرع جرس الرهبان في الدير المجاور ، في تمام الساعة الرابعة صباحاً ، فاستفاقت

سيدة وحاولت ان تنهض ، فما استطاعت لان يديها ورجليها و(خصلة) من شعرها (مكبلون) بالحبل وبالسرير ، فخافت ، بل ارتعبت ، وصرخت ، فاستفاقت رفيقاتها ، فرفاقها ، والجميع بالوضعية ذاتها ، فعلت الصيحة ، وشرعوا يستغيثون ، وفي الوقت نفسه يضحكون... ولكن لم يستطع احد منهم ان ينهض...

وكان مشهداً هزلياً للغاية يذكرنا بروايات موليير الشهيرة ...

واستفاق سائر ركاب الفندق وتجمهروا على السطح ، حول الاشخاص الثمانية وكل يسأل : من بطل هذا الحادث ويتهم بعضهم البعض. حتى اذا «شبعنا» نحن ضحكاً ، وهم كذلك ، اقدم رفيقي منصور في الساعة الخامسة صباحاً ، وكنت برفقته ، واخبرناهم حقيقة الامر الواقع فكادوا لا يصدقوننا لكثرة ما كان الحادث دقيقاً .

هذا جزء من كل ما جرى معنا اثناء تلك العطلة في ميروبا ، وجوارها حيث قضينا العطلة في ذاك الصيف بعد ان كنا نصطاف في «صوفر» المصيف اللبناني الشهير ...

* * *

٤ – عهد البكالوريا

صف استراحة : وانتهت العطلة فبدأنا نهتم بجمع كتبنا ، استعداداً للرجوع الى المدرسة ودخول الصف الثاني ..

والغريب في الامر ان اكثر الطلاب يعتبرون هذا الصف – الصف الثاني – صف استراحة ، بعد «البروفه» وقبل صف (البكالوريا) ، على حد قول احدهم :

«La classe de seconde est uue classe de repos avant d'arriver en première.»

وبلغ عددنا ، يوم دخولنا ، خمسة عشر طالباً . وكان بيننا ابن ذاك الغني الحسود المذكور سابقاً ، وقد قفز من الصف السابع عربي ، او الثامن عربي ، لا اذكر تماماً – الى الصف الثاني عربي ليتبع الفرنساوي .

ولا يخفى بان الادب الجاهلي هو المادة الاولى التي تدرس في الصف الثاني عربي . وكان معلمنا ، من وقت لآخر ، يحرّض هذا الفتى كي يقرأ بعض اشعار ويشرحها كما نفعل نحن رفاقه في الصف ، وغايته من ذلك ان يشجعه على الاهتمام

باللغة العربية. وكان مرة، يقرأ في الصف، بيتاً من شعر امرىء القيس ألا وهو:

«فظل العذارى يرتمين بلحمها، وشحمٍ كهدّاب الدّمقس المفتّل»

فسأله المعلم ما معنى: وشحم كهدّاب الدّمقس...؟

وكان جالساً بجانب هذا الفتى الغني، فتى آخر يدعى شاهين ش. وكان يحب المزاح وعارفاً بان رفيقنا الغني يقود سيارة والده الخصوصية، فهمس شاهين باذن رفيقه اذ ذاك:

وشحم... معناه الشحم الذي يوضع على (دولاب) السيارة.

فردد الفتى الغني هذا الشرح للمعلم، على مسمع منا جميعاً، فقهقه المعلم، وقهقهنا نحن، وانخجل الفتى الغني، وكره اللغة العربية لصعوبتها، حسب ظنه، وخرج من الصف ولم يرجع اليه ابداً.

الركوب على الباب: وعلى اثر هذا الحادث ظل احد رفاقنا يضحك بكثرة، ولما لم يقتنع من الاستاذ، ويتوقف عن الضحك، قال له الاستاذ بالحرف الواحد:

(اطلع على الباب) (ويقصد بهذه العبارة طرده من الصف) وكان الباب مفتوحاً.

فما كان من الطالب، الخفيف الروح، إلا ان نهض حالاً من مكانه وصعد على (درفة) الباب عملاً (بأمر) معلمه...

فاطلقنا ضحكة لم يسبق لها مثيل...

واصبحنا، بعد ذلك، كلما التقينا بالحوش بالرفيق الاول الغني، نردد، على مسمعه، الشطر الثاني من بيت الشعر:

...وشحم كهدّاب الدمقس المفتّل)

فكان يكتفي بان يبتسم، ويهز رأسه... اما بماذا يشعر في اعماق قلبه، فلم نشأ ان نزعجه ونسأله...

الوضعية ذاتها: وانتهى صف (الاستراحة) ودخلنا الصف الاول وسرعان ما فهمنا تماماً بان وقت الجد والكد قد حان واصبحنا خائفين ان يصيبنا كمن يبني بناء، وعندما يصل الى نهايته، يهدمه.

لذلك قلّما كان احدنا يرفع رأسه وقت الدرس، او يميل نظره وقت الشرح،

وكان يأتي المساء ، ونحن كأننا في (غيبوبة)...،

وكلنا ، كنا آسفين على الوقت الذي اضعناه في الصفوف السابقة ، وعندما نجتمع برفاقنا الطلاب في المعاهد الأخرى ، أثناء الحفلات الرياضية ، والادبية ، كنا نلاحظ الوضعية ذاتها . ولكن ما العمل ، وقد سبق السيف العزل ؟

***

يوم الدينونة : واذا بنا نصل الى آخر السنة ، وقد بلغ يوم (الدينونة الرهيبة) ، بعد مضي ما ينيف عن العشر سنوات على مقاعد الدراسة . فتوجهنا باكراً الى دار الامتحان زرافات ووحدانا . واجتمعنا في ساحتها الفسيحة حيث انتظرنا بقلق ورعدة حتى الساعة السابعة والنصف صباحاً، ونحن نتساءل فيما بيننا، ودون جدوى طبعاً ، عن المواضيع التي ستعطى لنا .

على ان تقديرات البعض ، وافتراضاتهم ، بدلاً من ان تخفف من جزع البعض الآخر ، كانت تزيدهم هماً واضطراباً .

وعندما اشير الينا بالدخول ، بادر كل مرشح الى الغرفة المعيّن فيها مع جمهور من رفاقه... وبدأ الاحتكاك ، وتبادل الاحاديث بين وجوه اكثرها جديدة.

ودار (الاستفتاء) فيما بيننا عن القوي والماهر في طرْق كل المواضيع الامتحانية، وحلّ معضلاتها .

فمن قائل : (انا يمكن ان انال خمسين علامة على ستين على الموضوع العربي ، لكن على الموضوع الافرنسي لن اتجاوز العشرة او العشرين على ستين) .

ومن قائل : (انا مثلك ! فلا بد ان نتدبر لنقل الموضوع كله ، او على الاقل قسم منه) .

ومن قائل : (انا لا ينقصني الا حلّ مشكلة الرياضيات . فاذا لم اجد من يمدني بمساعدته تدور عليّ الدوائر ويكون نصيبي - صفرا - على المسابقة ، واصبح واقعاً في (البالوتاج) مع (رجال تشرين) .

وهكذا كان اكثرنا يفتش عن سبيل (للنقل) دون ما اكتراث لكون (النقل) اختلاس ذميم ومذلّة لا تمحى .

واكاد اقول كلنا ، لولا الذين كانوا يشكلون النزر اليسير بالنسبة لابطال

(النقل)، وقادة (الاكتشاف)، ودعاة (الاستعراف) الى مـــن يساعدهم في امتحاناتهم ...

ومضت ايام التصليح الخطي التي قلّما خلت من المحاباة. ووافى الامتحان الشفهي، فشعر الطلاب الذين (زمطوا) بالامتحان الخطي. بازدياد حاجاتهم الى وسيط يضمن لهم علامة جيـدة تقيهم شرّ الرسوب في الشفهي حتى (يزمطوا على طول) ويصبح بين ايديهم ورقة موقّعة من وزير، واسمها (بكالوريا)...

* * *

واليوم اذا تأملنا باكثر طلابنا، وعددهم يزداد مـع الايام. فهل نرى لهم هدفاً سوى الحصول على مثل تلك الورقة ؟

مـسكينة الثقافة، والصراحة، وعزة النفس،

ومـسكين العمل الجدّي، والاخلاص، والواجب الوطني المقدس. كل هذه امور تافهة قلما تدعو اهتمام اكثر الطلاب الذين هم رجال الغد، وامل المستقبل!!

* * *

٥ — عهد الفلسفة

ومما اذكر انني عندما نجحت بامتحان البكالوريا — الجزء الاول— بالرغم من الصعوبات، بدون واسطة، وبدون اتكال على النقل، والحمد لله، شعرت بلذة النجاح على غاية ما يرام، وقضيت العطلة الصيفية، بكل راحة بال ...

ولكنها راحة الموقة .

فما ان جـــاء تشرين الاول حتى «عادت المياه الى مجراها»، وعدت الى «الزّربة» بين اربع حيطان لأقضي اجمل ايام حياتي على البنك .

هي ايام كنت اتذمّر فيها آنذاك من حفظ النظام، وتطبيق القانون، كما كنت اتضايق احياناً مما كنت اسمعه من بعض الجيران والجارات كقولهم: «ماذا ينفع العلم في هذه الايام...، ان ما تعلمته يكفيك...»

فكنت اسمع واقول في نفسي : اذا، بالرغم من نجاحي، يسمعونني هـذه العبارات، فماذا كانت حالتي فيما لو كنت رسبت...؟!

ولما كنت ، ولا ازال ، عنيداً لدرجة لا تحدّ : (يا بكسر راسي ، يا بكسر الحيط) فقلما اكترثت لما كان يسمعني اياه «ابناء وبنات الرحمة» ، والمحبة الزائدة..»

ودخلت صف الفلسفة حيث «غطست» مع رفاقي بدروس الفلاسفة والمتفلسفين ، والمواد التابعة لهم . ورغبتي بذلك ، ارواء ظمائي اذ كنت متعطشاً لمعرفة كنه الامور في هذه الدنيا .

وشرعت اكدّ واجد . الا انني ، بالرغم من اجتهادي ، كنت اشعر بان «عقرب» الساعة كان يسرع اكثر مني ، فما ان يطلع علـيّ او علينا النهار حتى حالاً ينتهي .

وقضيناها سنة لم يسبق لها مثيل : عددنا قليل ، موادنا كثيرة ، ووقتنا قصير.

وكنا ، كيفما اتجهنا (بالحوش) يقول لنا رفاقنا بحسد : «هنيئاً لكم يا طلاب الفلسفة ، فقد وصلتم للآخر».

فنتذكر عندئذ قول المتنبي عندما كان في مصر عند كافور :

«ماذا رأيت من الدنيا ، واعجبه   اني بما انا شاكٍ منه محسود»

وكيف لا نشكو وقد تحققنا ، لاسيما عند انتهاء السنة ، بان كل ما درسناه في حياتنا ليس الا «نقطة» من «بحر» العلوم الواسع الذي لا حدّ له ؟

وان انسَ فلا انس في حياتي كلها ما حدث لي يوم الامتحان الرسمي الاخير (وملاّ آخرة كانت عليّ ...)

فما ان دخلت القاعة العامرة بالشبّان المرشحين ، وجلست بين رفاقي بحسب نمرتي ، حتى تبعتني وتصدرت بجانبي ، بحسب نمرتها طبعاً ، فتاة شقراء ، ينبعث السحر الحلال من عينيها ، والجمال الجمال يفوح من محيّاها ...

واذا بصدى همسات خفيفة مثل : بَخ ... بخ ... الله ، الله ... ، هي صدى نغمات رفاقي المرشحين للامتحان ، فكأن العـذراء هبطت من السماء ، ودخلت بيننا ، او ملاكاً جاء يحرسنا من خطر السقوط ...

على انني قلما اكترثت لهم وللفتاة التي لم اكن اعرفها قبلاً حيث ساعتها ليس وقتها .

وبدلاً من ان ابتسم ، عبستُ ، وظليتُ منخفض الرأس .

وكان موقفي هذا جعلني «اكبر بعينيها» فنظرتُ الى رفاقي نظرة ازدراء ، ونظرتْ اليّ نظرة تعجب ووقار .

ولم تلبث ان بـــدأت تتململ بعد ان وزعوا لنا الاسئلة . وكنت اراقبها بطرف عيني احياناً دون ان اتركها تلاحظ ما افعل ، بينما كنت اطلب من الله تعالى حتى «يخلّصنا على سلامه» .

ولكن من اين لي السلامة والراحة ، ومصيبتي كمصيبة الاستاذ كيومجي في اغنيته المشهورة :

يا مصيبتي ،
ويا تعتيري ويا دلّه ،
سمرا كانت ، ام شقرا ،
هيّ سبب كل علّه ،

او كمصيبة الفيلسوف القائل : «المرأة شرّ كلها ، وشرّ ما فيها انها لا بد منها»

ولم يمض ساعة من الوقت حتى همستْ رفيقتي في اذني ، بوقاحة ولطف :

«مسيو مالي عين اطلب من غيرك ، فاعمل معروف مرّقلي البرويّون» .

ودار بيننا الحديث ، ولكن بالكتابة فقط ، خوفاً من النظّار .

وبعد اخذ وردّ ، اعطيتها «البرويّون» ، اي (المسودّة) المسابقة الاولى ... ثم بعد الظهر المسابقة الثانية ... وكدت اعطيها الثالثة لو لم تكن هي ابرع مني للبحث بموضوعها .

ولم اخف مطلقاً من الرسوب في الامتحان كما كانت هي خائفة حيث لم اكن من اصحاب السوابق ، باذن الله .

وهذا ما دفعني ان اكمل معروفي معها ، واطلّع على مسابقتها الثالثة .

ولكن سرعـــان ما مضى الوقت وقرع الجرس وانا اتلهّى بمساعدة رفيقتي المرشّحة ، فلم اتمكن الاّ من كتابة بعض الأسطر على مسابقتي التي سلّمتها للمناظر والدمعة في عيني ، والحسرة تتآكل احشائي ...

وجرّب احد رفاقي ان يعزّيني فقال لي : لماذا التحسّر ؟ فاذا لم تحصل على شهادة الفلسفةفيكفيك ان تكون قد حصلت على قلب اجمل فتاة . ولم يمضي اسبوع حتى اعلنت النتيجة فكانت رفيقتي ناجحة وانا «ساقط» .

والجدير بالذكر ان رفيقتي ما عادت التفتت اليّ ، وابت ان تقرّ بمساعدتي لها فاستنتجت من كل ما تقدم بان لا يبقى عليّ الا ان «اصيّف» مع الكتاب ، بل مع «رزمة» الكتب منزويا عن كل الناس وملاهيهم ، واضعاً نصب عينيّ قول الشاعر :

كذا طبع الملاح ...   فطورنَ على الخداع ...

* * *

قبل دورة البالوتاج : وبعد ان استرحت عشرة ايام من عناء الدرس ، وشدة التأثر ، اعــددت برنامجي الصيفي الذي انحصر بتقسيم المواد لمدة شهرين ونصف الشهر ، قبل دورة «البالوتاج» في تشرين .

وقضيت تلك العطلة المشؤومة كالناسك الزاهد بكل ما في الدنيـا من روعة وجمال ، فكنت انهض باكراً «لأهرب» من البيت الى قرب شجرات الصنوبر في الحرج المجاور لبيتنا ، قبل طلوع الشمس ، وقبل ان يأتي لزيارتنا «ابناء» وبنات الرحمة» الذين غمروني «بغيرتهم» في بحر السنة .

وكنت اقضي النهار ، وبين يدي ورقة ، وقلم ، وكتاب . فتارة اضع التصاميم ، وطوراً استظهر ، واخرى افكر . وعندما اشاء الاستراحـة قليلاً ، استلقي على ظهري ، واتأمل بجمال الطبيعة ، وانا في قارعـة النهار ، فيمرّ بمخيلتي ذكرى « جان جاك روسو » في « لياليه المقمرة » « nuits à la belle étoile ...» كما يمر في الوقت نفسه ، اقوال بعض الحكماء التي منهـا : من صبر ظفر . الصبر مفتاح الفرج ...

وبعدها اسأل نفسي : هل يمكني ان انجح في تشرين ، ام ان الخوف سيعتريني اثناء الامتحان فأرسب ، وأصبح كمن ينتقل من « تحت الدلفة لتحت المزراب» ؟ وكنت ، كلما فكرت بالرسوب اشعر بان ضلوعي تتلاطم ثم اعود الى نفسي

واقول : «على نيّة الله» فانتعش قليلاً ، وأواصل مراجعاتي .

* * *

وكان خادمنا الامين ، ظهر كل يوم ، ينقل لي الغـــداء ، مع ابريق ماء ، ويضعه بقربي دون ان أكلّمه او يكلّمني .

ولم اكن احلق ذقني طيلة ايام الاسبوع ، الا يوم الاحد فقط ، لأتمكن من سماع القداس دون ان يهزأ بي الناس . وهو اليوم الوحيد الذي كنت ارتاح فيه دون ان ألتفت الى الكتاب .

وصدف مرة ان مرّ في الحرج جمهور فتيات ، وأكثرهنّ من اللواتي يشغلن بعض الوظائف في المدينـة – على «الدكتيلو» ، على التلفون » – وكنّ يوم ذاك اثناء عطلتهنّ السنوية.

فلما شاهدتهنّ من مسافة بعيدة ، نزعتُ (جاكاتي) و(لفلفتُ) بها كتبي ، فاصبحتْ بشكل وسادة ، ووضعتها على جزع الشجرة، ثم وضعت عليها رأسي ، واستلقيت على ظهري ، وتظاهرت باني غارق في نومي .

واذ مررنَ بقربي ، لمحتني احداهنّ فجأةً ، فصاحت بخوف ورعدة: يا ماما.. هذا واحد مجنون (عم بيشنخر) ...

وقالت لرفيقاتها : انظرن شعره (مفشكل) ولحيته طويلة...

فقالت الثانية : يمكن ان يكون شحاداً جائعاً .

وقالت الثالثة ، يجوز ان يكون من رجال التحري ، او احد مفتشي ادارة الدخان والتنباك .

وقالت الرابعة : وقـــد يكون (خوري جديد) او (راهب جديـــد هارباً من الدير ، فغيّر (الجبّة) ولم يتمكن بعد ان يحلق ذقنه ..

واذ هنّ يتحدّرن ، قالت احداهنّ : مالنا وله . لنذهب ونتركه ، وربما يكون (حطابا) انهكه التعب من كثرة المواظبة على العمل ، فلم يستطع ان يحلق ذقنه ، ولا ان ينام الليل ، والله يساعد الناس ...

اما انا فكنت اتقلب بهذه (الوظائف) الجديدة : مـــن وظائفي العديدة :

(مجنون) الى (شحّاد جائـع) ، الى (مفتش دخان) ، الى خوري ، الى (خي شلع) ، الى (حطاب) الى... وذلك عن طريق السمع طبعاً ، دون ان اجرؤ ان احرّك عينيّ الغامضتين ، حتى انني كنت احاول كل المحاولة كي لا يفلت مني ضحكة ، او ابتسامة صغيرة ، فينفضح امري .

وظليت على هذه الحالة الى ان شعرتُ بابتعاد اصواتهنّ عني ففتحت عينيّ فلم ارَ احداً . فنهضتُ ، واذا بواحدة من بينهنّ ، في اسفل الجبل ، تصيح برفيقاتها: أنظرنَ ، انظرنَ ، انه واقف .

فقلت لها بصوتٍ خافت : لعنة الله عليك . فلم تسمعني ، والحمد لله . ولو سمعتني لكانت ، على ما اعتقد ، (علّقت بي) مع رفيقاتها ، ووجهنّ اليّ كلاماً قارصاً . ويمكن يكون صار بالعكس . فالله اعلم... وكان ذلك يوم السبت .

ولما طلع صباح الاحد ، انتشرت الاخبار في البلد بان في الحرش (الفلاني) رجلاً طويل القامة ، طويل اللحية ، وذا منظر مخيف جداً ومدججا بالسلاح ويقطع الطريق على كل من يمرّ من هنالك...

فقلت في نفسي : شكراً لله على هذه (الوظيفة) الجديدة ...

وإذ بشرزمة من رجال التحري والدرك تطوّق ذاك المكان - حيث الفتيات رأينني نائماً - للقبض على «قطّاع الطرق» يعني (عليّ انا) .

ومَن يسمع بهذا الخبر ، هل يجرؤ ان (يخشّ) في ذاك المكان ؟

حدث كل ذلك ، وانتشرت هذه (الدعاية) في بدء النصف الثاني من شهر ايلول ، ولم يبقَ بيني وبين الامتحان الا بضعة ايام ؛ فتذكرت قول المثل : (لا تكرهوا شيئاً لعله خير لكم).

ثم توقفت عن المراجعة ، والدرس ، وصرت انتقّل في الجبل من قرية الى قرية طلباً للتنزه والراحة ، ولكي اهضم ما درستُ ، وتعلمت ، وراجعت ...

* * *

الفوز الاخير : ولمّا ظهرت النتيجة النهائية لمعركة (البالوتاج) في دورة تشرين ، كنت من الفائزين بالشهادة بعون الله .

٦ – عهد الحقوق

وفي اليوم التالي اسرعت وسجلت اسمي في معهد الحقوق . الا ان الظروف شاءت ان اظل بعيداً عن (كار الكذب) كما يسميه البعض، من باب الظرف والفكاهة، فــلم نصل الى نصف السنة حتى اشتدت وطأة الحرب وانقطع الورق ولم يكن بين ايدي الطلاب العدد الكافي من الكتب اللازمة لهم .

وكان اساتذتنا يسرعون في اعطاء الدروس . وقلما كنا نتمكن من التقاط الشرح اللازم بــل الشرح الضروري وكان بيتي في جونيه والمعهد في بيروت ، والمواصلات صعبة كثيراً آنذاك ، وعليّ ان اتحمل مصاريفات باهظة ، اذ ليس من عادتي ان اعيش (كيف ما كان) ، فشعرت اذ ذاك بان (الحملة) ثقيلة عليّ .

و(زيادة الطين بلّة) فكلما زارنا ابناء وبنات الرحمة كانوا يعيدون الكرّة .
فمن قائل لي : (ما في محامي مات وعلى جلده قميص).

ومن قائل : هذه المهنة يلزمها كذب ومنفقة ، وانت ليس عندك من هـذه (البضاعة) فاتقان فن الخطابة وحده لا يكفيك .

ومن قائل : حرام تتعلم، وتخسر مصرياتك ، وبعد مدة يأتيك (هتلر) بقانونه الجديد واذ ذاك (لن ينفع الندم بعد ذلّة القدم) .

ومن قائل : نصيحة (ببلاش) دبّر شغله غيرها . .

هذا فضلاً عن ان والدي كان دائماً يقول لي : «يا ابني كار الكذب ما بدي ياه» . . .
وكنت اسمع كل هذه الاقوال واخالها (وابل) تنصبّ في اذني لاني كنت ولا ازال اعتقد بان مهنة المحاماة هي، قبل كل شيء، مهنة الدفاع عن الشرف الذي هو اثمن ما يحوي الانسان في هذه الدنيا .

على اني تجاه هذه «النصائح» والمعاكسات التي انصبّت عليّ من جميع الجهات، امسيت حيرانا ولم البث ان تركت معهد الحقوق وبي من الحسرة ما لا يوصف ، وانخرطت في سلك التعليم بينما كنت في اكثر الامسيات احرر في الجرائد ناشراً المقالات المتنوعة ، ولكن اكثرها مقالات انتقادية ، وانتقادية لاذعة .

ولو كان في ذاك الوقت قانون المطبوعات الحالي لما كنت تخلّصت من«الفوته

على بيت خالتي » .

تلاميذي محامون : وبعد مدة ، اصبحت ، كيفما التفت ، ارى تلاميذي حولي وقد اصبحوا محامين بينما انا لا ازال حيث كنت .

وقد فكرت مرة بمواصلة الدرس فسجلت اسمي ثانية في معهد الحقوق ، وذهبت لحضور الشرح . ولكن ما ان دخلت المعهد حتى نهض احد تلاميذي القدماء — في صف البكالوريا — وقال لي : اهلاً بمعلمنا الذي صار رفيقنا » . . .

فسمعته وابتسمت ، انما تلك الزيارة لمعهد الحقوق كانت الاخيرة . ثم قطعت كل امل من مواصلة درس المحاماة .

وتركت ايضاً مهنة التعليم ، واعتنقت مهنة الصحافة ، فاسماني بعضهم « فرخ صحافي » حتى اذا رأوني تقدمت قليلاً قالوا ، والله صحافي قدير ، بينما انا قلتها ارى نفسي قديراً .

* * *

مع الزعماء : وعلى اثر انتشار مقالاتي في الجرائد والمجلات كلفني يوماً احد الزعماء لاحبّر له كل يوم مقالاً في جريدة تناصره باخلاص وتندد بخصومه وتهاجمهم مهاجمة عنيفة .

فنزلت عند رغبته ، ولكن على شرط ان لا تنشر هذه المقالات بتوقيعي انا .

وفي الاسبوع ذاته جاءني زعيم آخر يكلفني بان اجيب على مقالات خصمه ، الزعيم الاول ، بمقالات تكون اشد لهجة . وترك لي الحرية بان اوقّع تلك المقالات او لا اوقعها . . .

وكانت الجريدة الاولى تصدر في الساعة الرابعة صباحاً بينما الجريدة الثانية تصدر في الساعة الواحدة بعد الظهر .

ولما رأيت بان الزعيمين المتخاصمين قد دفعا لي سلفاً مبالغ من المال لا بأس بها ، « سنّيت » قلمي وبدأت احبر المقال الاول ، في الجريدة الاولى ، كما يريده الزعيم الاول ، ثم احبّر المقال الثاني ، في الجريدة الثانية ، كما يريده الزعيم الثاني .

وقبل ظهر كل يوم ، كنت اذهب الى المقهى ، تجاه ساحة الشهداء واجلس بين

هواة الراحة وقتل الوقت ومطالعة الجرائد وقد كانوا يتناقشون بالمواضيع التي اكتبها انا في الجريدتين .

وكنت اسمع مناقشاتهم ، ومحادثاتهم دون ان انبس ببنت شفة ودون ان اتركهم يلاحظون باني منتبه لاقوالهم واحاديثهم ...

وكان فريق منهم يقول : هذا المقال لاذع في هذه الجريدة اكثر من ذاك في الجريدة الثانية .

فاسمعه ، واجرّب ، في اليوم التالي ، بان يكون المقال في الجريدة الثانية اقوى لهجة من المقال في الجريدة الاولى .

وتصدر الجريدتان ،

واذا بانصار الزعيم الثاني يقولون : اليوم «صاحبنا» فاز على «صاحبكم بينما يبتسمون ، وينعتون هذا «الصاحب» — يعني انا — بنعوت تخجل من ذكرها «لضخامتها» .

وظلتْ هذه المناظرة ، او بتعبير آخر بقيت اكتب ، وأجيب على مقالاتي وانشرها مرة بتوقيع مستعار ، واخرى بدون توقيع دون ان اترك احداً يشعر بان كاتب الفئتين من هذه المقالات هو واحد ، ألا وهو صاحب هذا القلم الحقير .

* * *

لا اعرف : وكان بعض اصدقائي ، من وقت لآخر يسألونني من يحبّر هذه المقالات ؟ او مَن هما بطلَي هذه المناظرة الانتقادية القوية اللهجة فاجيبهم : لا اعرف ، او «ما بعرف».

وهذا الجواب «لا اعرف» لقنتني اياه خالتي ر—م — اذ كنت طفلاً ، واشارت اليّ لأقوله كلما اسأل عن حادثة ، او كلما يطلب مني افشاء سرّ .

وتملكت هذه العبارة في ذاكرتي حتى اصبحتْ اليوم، كلما شاء احد ان يسألني عن شيء أجيب فوراً : «لا اعرف» ، قبل ان افكّر بان الجواب بوضوح لا يحصل منه ضررٌ لي ، ولا لغيري .

واذكر مرة ، انني ذهبت لزيارة صديق كي اخبره عن حادثة . ولما وصلت

الى مكتبه ، وتبادلنا التحية ، وجلسنا ، بادرني بالسؤال عن الحادثة ذاتها ففاجأته بالجواب : لا اعرف ، ثم ابتسمتُ ولم البث ان عرضتُ له الخبر .

* * *

اسرار الناس : على ان المنفعة الكبرى من عبارة –«لا اعرف» – هي انني اصبحت مشهوراً بحفظ الأسرار .

ولما كان اكثر الناس اجمالاً قلّما يستطيعون ان يعيشوا بدون ان يفشوا اسرارهم الدقيقة الى من يحفظها، صرت اشعر الان بان صدري اصبح «مستودعاً» لاسرار ثلاث ارباع الناس ان لم اقل اكثر ، اذا جاز القول – حتى انني اذا شئت ان اخرب بيوت البعض منهم فيكفي ان ابوح بكلمة سرّ واحدة من اسرارهم العميقة فيتمّ مرادي .

ولكني ما فعلتها ، ولم ولن افعلها باعتبار ان من سلّمك سرّه فقد سلّمك روحه ، وحياته ، وانا لا اشاء ان اكون سفّاحاً ، ولا مجرماً ولله الحمد .

* * *

٦ – على طريق الابدية

من جونيه الى بيروت : واذكر اني في صباح يوم اثنين من شهر آب اللهاب حكمتْ عليّ الظروف ان اصعد «بالبوسطة» في ساحة جونيه لانزل الى بيروت..

وما ان جلستُ على الكرسي حتى حام حولي عشرات المسافرين ، كما يحوم النحل على الزهرة بالرغم من أني لست سيدة جميلة ليودّ الناظرون مشاهدتي ولمسي ومحادثتي كيفما اقتضى الحال ، ولستُ زعيما كبيراً ليلتفّ حولي «زلمي» الكثر كي يبيّضوا وجههم معي ، ولستُ... ولست...

فاستغربتُ امر وثوب هذا «الجيش العرمرم» على تلك «البوسطة» او تلك «الشاحنة» الباقية كآثار قديمة من عهد «بندق بوفتيل» كما يقال ...،

ورفعت نظري نحو العلاء فوقع على جملة كُتبت باحرف كبيرة: «ممنوع مدّ الرأس واليدين خارج السيارة» ، والى جانبها كتابة اخرى لفتت نظري اكثر من سابقتها ألا وهي : «محمول هذه السيارة –٢٢– شخصاً» ، فسألت السائق فوراً : «... محمول سيارتك –٢٢– شخصاً من البشر ام من الجفصين ?

فاجابني مبتسما : «حضرتك صحافي وشاعر ، والمعنى بقلب الشاعر» .
ثم دعس «مارش» وزعق «الزمور» وقال «على نية الله» ، ومشى ...
فقلت في نفسي : طالما ان السائق اصبح فيلسوفاً فياليتني مـــا حكيت . ثم تذكرت قول المثل العامي: «ضع راسك بين الرؤوس» ،وقل يا قطاع الرؤوس».
وانطلقتْ بنا «الشاحنة» وهي«تُطربنا»بأزيزها المزعج من نوع «خبّط لبّد»..
على اننا عندما وصلنا الى نصف طلعة -صربا- سمعنا عجوزاً تُتمتم : «يا عـذراء رافقينا» ، وشيخاً يقول: «يا ساتر خلّصنا...» ولم يلبث ان اخذ الدخان يتصاعد من المحرّك ... وشرعت البوسطة تخضّ مثل «المرجوحة» او بالاحرى مثـل «السرير» للطفل بينما رؤوسنا تسند بعضها بعضاً مثل رؤوس البطيخ ، ثم توقفت البوسطة فصاح السائق : «لا تخافوا ، ما في شي ، بسيطه ، ما احد ينزل ...» ثم اوقفها ، او هي توقفت في نصف الطريق . ونادى للمعاون : ارجـع «جيب» بنزين حالاً وسريعاً ...
فتنفس الركاب الصعداء اذ اتتهم فرصة كي يشاهدوا وجه ربهم فنزلوا مـن «العلبة الكبيرة» او من «البوسطة» فلا فرق ، والتفوا حولها كما التفّ قديماً ابناء (جحي) حول نعشه ، وشرعوا ينتظرون طالبين الى الله كي يمنّ على (الشاحنة) بالصّحة العاجلة وعلى جميع الركاب بالصبر الجميل .
بعد ربع ساعة عاد المعاون ناقلاً البنزين ...
ولما حاول السائق ان يدوّرها علّق (المارش) فنادى عنـدئذ للذين كانوا جالسين على ظهر البوسطة والذين كانوا واقفين على السلالم والابواب والجوانب: «يا شباب دفشه... الى الوراء ... الى الامام ... ضعوا حجراً امام الدواليب.»
اخيراً دار «الموتور» وانطلقت بنا «المحروسة» ولسان حالنا يردد مع الشاعر:

« وَمن كانت منيّتهُ بارضٍ   فليس يموت في ارض سواها »...

والغريب في الامر ان «اجرة» الراكب في البوسطة من جونيـه الى بيروت، وبينهما—١٧— كيلو متراً، ربع ليرة لبنانية، في الايام العادية، اما وقت «الحشرة» كيوم الاثنين فيدفّعون الراكب نصف ليرة...

على أني قلّما اكترثتُ «للنصف» الذي دفعته ، كما دفعه سائر الركاب ، بكل طيبة خاطر لأن همّنا الأكبر، يوم ذاك، كان محصوراً بان نصل الى بيروت سالمين . . .

وانتهى المعاون من جمع المال في اول جسر بيروت . واذ بالبوليس هنـاك ينتصب امامنا ويُشير للسائق بالوقوف . فانحرف السائق «بالمحروسة» الى جانب الطريق وتوقف ، فقال له البوليس « شو محمّل جبن ام سردين ؟ . . . » فاجابـه السائق : «يا سيدي لا تنسى انه اليوم الاثنـين ، وايام صيف ، وكل السيارات و«البوسطات» في الجبال . . . .»

فقال البوليس : كم راكباً معك ؟

اجابه السائق : لا اعلم . لنعدّهم .

وبدأ البوليس يعدّ : جوز ، اثنان ، ثلاثة . . . فبلغ عددنا -١٨- جوزاً وفرد ، اي -٣٧- راكباً ، فقال البوليس للسائق بعد ان انزل الذين كانوا واقفين على السلالم : اعطني دفترك واوراقك ثم «وصّل» ركّابك وارجع . . .

فلم يعاكسه السائق بشيء ، ثم تابع سيره . . .

وكان بين الركاب شاعر عامي ، وكأنه قد عِيل صبره فصاح بعد ان بعدت «المحروسة» عن البوليس : أ . . وْ . . فْ . . . ثم اردف :

«المالوش حظ بيجرحو لفح الحرير   وبالسّيف ما فيك تجرحو الحظو كبير»
بجونيه كنا قاعدين من ساعتين   يا ريت كان النا حظ وركبنا حمير» . . .

اخيراً ، لم اعلم ماذا جرى بين البوليس والسائق بعد رجوعه ، بل كل مـــا علمته اني وصلتُ الى بيروت ، بعد ساعتين ، سالماً والحمد لله ، ولم يفقد مني سوى احد ازرار «جاكتي» . . . !

٨ – على طريق الزواج

اما ما حدث لي وانا « على طريـق الزواج» فليسمح لي القراء الكرام بسرد تفاصيله كما لا ازال اذكره :

لقد شاء الله ، في الساعة السادسة من احدى امسيات الربيع ، ان اكون سائراً على الطريق العام ، في حي الاشرفيّة ، في بيروت ، برفقة كاهن مثقف ثقافة عالية

فالتقينا ، تجاه درج بناية كبيرة، برجل كهل ، متقن اللباس، تدل ملامحه على انه عائد من شغله ، ويعرف الكاهن سابقاً ، فحيّانا ، وهو يبتسم ، واقترب منّا ، وصافحنا مصافحة مشتاق ، ودعانا كي نزوره ، فاعتذرت انا ، لاني لم اكن اعرفه قبلاً ، وكاد الكاهن يجاريني لولا الحاح الرجل الذي اخجلنا بلطفه ، وكنا قد مشينا اكثر من ساعة ، فرأينا بان من المناسبة ان نلبّي دعوته للاستراحة قليلاً .

وصعدنا (الدرج)، ودخلنا منزله العامر، المفروش على آخر طراز ، فاستقبلتنا زوجته ، وابنته ، وابنه ، بكل بشاشة وتهذيب . وبعد المصافحة والتعارف ، جلسنا ، وبدأنا نتبادل الاحاديث، ولم تمض بضع دقائق حتى احضرتْ المرطبات وعقبتها القهوة،فالحلوى المنوّعة ، حتى اذا مضت النصف ساعة، استأذنا،وودعّناهم شاكرين .

ولكن ما ان وصلت مع الكاهن الى آخر الدرج حتى بادرني بالسؤال: كيف رأيت الفتاة ؟ وهل اعجبتك ؟

قلت : ان اعجبتني ، وان لم تُعجبني فسيّان عندي ، ما دمتُ غير مفتكر بالزواج الآن .

فقال: اي متى تفتكر ؟ هل تنتظر كي تشيخ ؟

ثم اردف : انت الآن في مطلع شبابك ، وفي اقوى نشاطك ، فاذا اعجبتك الفتاة ، قل لي حالاً ، واذا لم تعجبك فلنقم بزيارة اخرى الى المنزل الثاني الذي لا يبعد كثيراً عن الاول .

قلتُ : وهل نحن الآن نفتّش على عروس أم اننا نتمشى لنتحدث،ونتنزه ؟

قال: وما ضرّنا لو فعلنا الاثنين: نفتش على عروس ، ونتنزّه في الوقت نفسه.

وبعد أخذ وردّ ، تارة عن هزل ، وطوراً عن جدّ ، قلتُ له: انت أخبر مني بذلك ، فاذا كنتَ تعرف بانّ الفتاة الثانية اجمل ، فلنذهب لزيارتها وإلاّ ...

فاجاب : لنذهب ، وانظرها انت بعينيك .

ومشينا باتجاه منزلها ، وانا اتذكر قول الشاعر :

مشيناها خطى كُتبتْ علينا ومن كُتبتْ عليه خطى مشاها»

الا ّ اننا لم نمكث اكثر من عشر دقائق بحيث لم يكن في البيت الا الفتـاة وحدها فقال لها الكاهن بانه آتٍ ليسأل عن صحة اهلها، وليتناول كأس ماء بارد فقط لان وقته قصير ...

ولما عدنا ، انحصر الحديث بيننا على الفتاة الاولى التي لم ارَها تشكو من شيء. على انني لم اصرّح له ، بل كلّفته كي يسألها اولاً في هل انا اعجبتُها ؟ ثم بعد ذلك يصبح «الكل حادث حديث».

وصرتُ متعجباً كيف ان ذاك الكاهن قد توصل ان يقنعني ، ويجذبني بهذه السرعة وعلى هـذا الشكل حتى انني ظننت بان اهلي دفعوه الى ذلك ...

وكأني به لاحظ دهشتي من تصرفاته السريعة ، وكانت بيني وبينه صداقة قديمة ، فشاء ان يكون صريحاً معي وروى لي خبراً لم اكن احلم به بوجـــه من الوجوه وهذا ملخصه :

«... ان الفتاة الاولى ، وامها ، واباها ، واخواها قد شاهدوك ، وسمعوك منذ اسبوع ، ساعة كنت تخطب في بلدة ـ ع ـ في الحفلة ـ .... ـ وتكلم قبلك ثلاثة خطباء ، وعقبك ستة، وكنت انت احسنهم كما صرّحوا لي...ومنذ ذلك الوقت بدأوا يسألون عنك . ولما كنتُ انا خادم رعيتهم سابقـاً ، طرحوا عليّ سؤالاً عنك فاجبتهم عليه . ثم استدرجتك الى منزلهم ، بعـد ان اتفقت معهم على الوقت دون ان اتركك تلاحظ ... فاذا كانت الفتاة اعجبتك فالكلمة الآن هي لك ...»

ثم اردف قائلاً :

« انها ، كما شاهدتَها ، طويلة القامة ، وفي التاسعة عشرة من عمرها ، وحاملة شهادة البكالوريا الجزء الثاني ومن عائلة وجيهة ومحترمة .. وهذه الصفات ، كما اعلم عن ارائك ، هي اهمّ ما تتطلبه انت من فتاة احلامك ، وقد تكون ، دون شك ، ادركتَ ، اثناء زياراتنا لها ، مقدار رجاحة عقلها ، وحسن ذوقها، وكرم اخلاقها ، واخلاق اهلها ... »

وعلى اثر هذا الخبر ، بل هذا الحديث المعقول ، كان جوابي بالايجاب. وواصل الكاهن مهمته بامانة واخلاص ...

وواصلتُ انا زياراتي لهم تارة برفقة الكاهن ، وطوراً وحدي ، واصبحت تلك الفتاة تبدو لي كأفتن ما تكون الفتنة ، واجمل ما يكون الجمال كما يبدو لي اهلها من احسن خلق الله .

ولم البث ان تذكرتُ قصيدة امين نخله التي يقول في مطلعها :

في «الاشرفية» يومَ جئتِ وجئتُها　　نفسي على شفتيكِ قد جمَعتُها

ذقتُ الثمار ونكهةً ، ان لم تكن　　هي نكهة العنب الشهيّ ، فاخترتها

* * *

الخطبة : وبعد ثلاثة اسابيع فكر اهلها بعقد خطبة لمدة قصيرة ، فلم اقبل بحيث لم ارَ لزوماً . فقرروا ابدال الخطبة بحفلة شاي فلم امانع .

ولكن عند انتهاء الحفلة جاء الوالد بـ «صرّة» من المال وسلّمها للكاهن الذي قال فوراً ، وهو يبتسم : انحسبهم .

فاستغربتُ ما يحدث ، وظليت ساكتاً . وكأنهم لاحظوا تغيير وجهي فقال بعضهم لي: «نرجوك ... اصبر للآخر ، فترى ما يسرّك ، فصبرت ، ولكني اظهرت عدم اكتراثي لهم ، وحصرت اهتمامي فقط بمحادثة الفتاة التي اظهرتْ لهم عـــدم اكتراث اكثر مني .

وعندما انتهوا من «العدّ» انتفض الكاهن من مكانه وقال : «هذه عشرون الف ليرة ، يمكنك ان تتسلمها كطاقة من الزهور وتتصرف بها كما تشاء .

فاحمرّ وجهي ، ووجه الفتاة كذلك ، وقلت لهم : ومَن بحث بموضوع المال؟

قال الكاهن: هذا شغلي انا وهذا رأيي انا ، ولم يبحث احـد غيري انا بهذا الموضوع .

قلت : اذن ابقِ المبلغ معك. أو ارجعه الى حيث كان والا ...

ولاحظ الحضور - ولم يكن حاضراً سوى الام ، والاب ، والشقيقين ، والفتاة وجدّتها - بأني اشمئزيت ، نوعاً ما ، من هذا العمل ، واوشكتُ ان انفر من

تلك التصرفـات ، وأدير ظهري ، وأتركهم وشأنهم ، فاستدرك الكاهن الامر باسلوب جذّاب . واثبت لي بان هذا الاقتراح هو من ابتكاره وحده . فهو من تلقاء نفسه اشار الى والديّ الفتاة كي يأتيان بالعشرين الف ليرة ...

وبعد محاولات عديدة ، لاقناعي ، وتهدئة اعصابي ... ، وضع المبلـغ في البنك باسمي ، وباسم الفتاة لحين الطلب .

الظن بي : على ان الامر الذي دفع الكاهن للبحث بموضوع المال على هـذا الشكل ، كما فهمت فيما بعد ، هو ظنّه بي اني لم اكن قادراً ان أؤثث بيتاً قبل ان اتزوج . وكانت دعامة ظنه ، جوابي له مرة سابقة ، قبل هـــذه الحادثة ، اذ صرحت باني لا املك فلساً ، وان رأس مالي هو لساني فقط، ومن كان رأس ماله لسانه هل يمكنه ان يؤثث بيتاً ؟

ولما تحققت لي فكرة الكاهن، تحمّست ، واسرعت فاستأجرتُ منزلاً جديداً مؤلفاً من خمس غرفات ، ودار ، ومنتفاعتهم ، بمبلغ الف وسبعماية ليرة لبنانية . واثثته بمدة لا تتجاوز الاسبوع فكافني الاثاث مبلغ ثمانية الاف ليرة لبنانية . ثم دعوت الكاهن ليرى بعينيه ما فعلتُه . فلم يتأخر عن الحضور ، وعلى الاثر سألني كم يبقى معك من الدراهم التي ُوضعت في البنك باسمك ، وباسمها ؟

فاجبت : ان العشرين الف ليرة التي تعني،لا تزال باقية بكاملها لاني لم امسّها

فقال : ومن اين اتيت بالمال حتى استأجرتَ ، واثثت و..؟

قلت : الله بعث. ثم اخبرته بالتفصيل كم تبلغ ثروتي .وحلّفته كي لا يخبر احداً لاني اريد أن اتأكد في هل الفتاة واهلهـا هم مغرمون بمالي ، وبارباحي ، ام هم مغرمون بي ، وبما خصّني الله به من مواهب ...؟

* * *

وجربتُ لمدة عشرة ايام ان لا افي بوعودي لهم :

فاذا وعدتهم بالرجوع بعد الظهر ، كنت ابقي المساء أو اعود قبل الظهر ، او لا اعود الا في اليوم التالي ...

وبعدها ضبطت مواعيدي لمدة ثمانية ايام،الى ان، ذات مساء ، قلت لهم باني

ذاهب الى طرابلس صباح غد باكراً ، وسأبقى ثلاثة ايام ، فصدقوني .

على اني بدلاً من ان اذهب الى طرابلس بقيت حتى الساعة الثالثة بعد الظهر في بيروت .

ثم توجهتُ لزيارتهم ، فلم اجد في الدار الا جدّة الفتاة - والدة ابيها - وهي ارملة في الثمانين من عمرها ، وقد اصيبت «بالطرَش» فخفّ سمعها، وقويَ صوتها واصبحتْ عندما تتكلم تخرج الكلمات من فمها كطلقات المدافع ،ولكنها، في الوقت ،نفسه سيدة لطيفة وتحب حفيدتها وقد خصصتْ لها مبلغ خمسين الف ليرة لبنانية تستلمهم بعد وفاتها .

وسألت الجدة عن الفتاة ، وعن امها .

فاجابت بانهما نائمتان .

ورغبة في تمضية الوقت ، سألتها عن سيدة من شمالي لبنان ، فبدأت تسرد لي عنها اخبارا لها اول ، وهيهات ان يكون لها آخر .

وعلى اثر ارتفاع صوت الجدة استفاقت الفتاة وامها وبدأتا تتحدثان باللغة الافرنسية ، وبصوت خفيف ، وهما في غرفتهما ، تجاه الدار والباب مقفل .

وكنت اسمع وافهم كل ما تقولانه تقريباً بحيث قلما كنت مكترثا لاخبار الجدّة التي كانت تحاول ان تشرح لي جوابها على سؤالي بالتفصيل .

واصبحت الام وابنتها حائرتين لانهما لم تستطيعا ان تعرفا معَ من تتكلم الجدّة وقد كانتا مطمئنتين الى اني انا صرتُ في طرابلس .

واذا بي اسمع الام تقول لابنتها ما تعريبه : « لقد اعطينا هذا الشاب مبلغ عشرين الف ليرة لبنانية ، قبل ان يتم شيء ، ألسنا مجانين ؟»

فدخلت هذه العبارة في اذني، كالقنبلة ، وأثرّت علي تأثيراً شديداً بالرغم من اني سمعت الفتاة ايضاً تجيب امها فوراً :« ماما هذا كلام ... لا اريد ان اسمعه. ولا يجوز ان يفتكر به احد ...»

اما انا فلم اتمالك دون ان اجعلهما تشعران بوجودي . فقاطعتُ الجدة ، وسألتُها بصوت مرتفع : ألا يمكن ان تكونا استفاقتا من نومهما ؟

عندئذ عرفتا صوتي ، ونهضتا ، وفتحتا باب غرفتها ، واظهرتا دهشتها من عدم ذهابي الى طرابلس ، فكان جوابي بانني اجّلت الرحلة الى اليوم التالي ...

وجلسنا نتحدث ...

وقضينا السهرة كالعادة ...

ابتداء الزعل : اذا في اليوم التالي ذهبت لمقابلة الكاهن ذاته ، واطلعته على تأثيري الشديد لدى سماعي كلام الام لابنتها في غرفة النوم . فهزىء مني ... ولكنني طلبت اليه بالحاح كي يرافقني باسرع ما يمكن . فرفض وحاول ان يقنعني بانني «غلطان» كثيراً فلم يتوفق هذه المرّة ،بل قام ورافقني وسحبنا مبلغ العشرين الف ليرة من البنك ، واعدناهم الى اهل الفتاة دون ان اتظاهر بانني «زعلان» .

ومما قلته لهم ... كما انني لا امانع بقبولهم المرة الماضية ، فانني هذه المرة ، ارجوكم ان لا تعاكسوني بهذا الطلب ، وانتم وانا نبقى كما نحن . فاقتنعوا ووضعوا العشرين الف ليرة معهم .

الا ان زيارتي هذه كانت الاخيرة .

وهممتُ حالاً في بيع اثاث البيت ولم يمض يوماً حتى جاءني احد السماسرة برفقة شاب متزوج يسأل عن منزل «مفروش» فاعجبه منزلي ، ولم نلبث ان اتفقنا على ثمنه وبدل ايجاره ، فدفع لي المبلغ نقداً واعطينا السمسار بدل اتعابه. وسكن الشاب وعروسه في ذاك المنزل حيث لا يزالان حتى اليوم .

ولكنني خسرت ستماية ليرة لبنانية ...

***

والان ، قد مضى سبع سنوات على هذا الحادث ، والفتاة لا تزال غير متأهلة وانا كذلك .

ورغب اليّ الكاهن ذاته ، من مدة ، كي اغيّر فكري وارجع اليها ، لاسيما وان جدّتها قد توفيتْ - رحمها الله - واصبحت «الدوتا» سبعين الف ليرة لبنانية ما عدا الفائدة ...وامها قد ورثت مؤخراً قطعة ارض لا بأس بها وابوها قد ازدهرت تجارته ..

فقلت للكاهن لا يمكني ان الوم الفتاة بشيء . اذا ، يا ابانا ، اذا رجعت اليها يظنون باني راجع محبة بالمال ، وهذا ما لا استطيع ان احمله ، وانا كما تعلم ، من الذين يعتقدون ، بان الحياة كلها وقفة عز فقط ، ولذلك لن ارجع.

وهكذا ما عدت فكرت بالرجعة ، ولا عدت فكرت بالزواج ، واصبحت ، وان بالرغم مني :

«كأني ما لثمتُ لها شفاهاً ، كأني ما واصلتُ ، ولم تصلني
كأني لم اداعبها لعوباً ولم تحلف عليّ ، وتستزدني
كأن الليل لم ينشرْ ويروي احاديثَ الهوى عنها وعني»..

* * *

٩ — صوت البلاد

وبعد هذا الحادث الذي عدّه البعض من نوع الجنون ، وقد يكونون على حق طالما ان «الجنون فنون» انشأت مجلة «صوت البلاد» . فشرع بعض الناس يتساءلون : كيف يمكن ان انشيء مجلة ولستُ من اصحاب الملايين ؟

وكأني بهم قد فاتهم بان الذي يساعد على انتشار المجلة ليس المال بالدرجة الاولى انما اسلوبها اولاً ثم عدد القراء الذين يعرفون منشئها .

العدد الاول : وطبعت من العدد الاول الف وخمسماية نسخة فقط. وزع نصفها في المهجر . والنصف الثاني في لبنان . وكان ثمن العدد خمسة وثلاثين غرشاً. اما العدد الخامس فقد بلغ ثمنه ليرة لبنانية بالرغم من اني طبعت منه ثلاثة آلاف نسخة .

دور الحسد : واصبح انتشار المجلة يزداد يوماً فيوماً ، فاحمرت عين احد الحسودين ، وهو غني كبير . وكان بيني وبينه صداقة متينة .

ولكنه لم يلبث ان جعلني اتذكر قول حميد فرنجيه مرة في المجلس النيابي : «ربي نجّني من اصدقائي» ، وكأني به كان خائفاً ان اتفوّق في المستقبل على ابنه الشاب الخامل العقوق .

او انه كان يجهل قول الشاعر :

«واذا اراد الله نشر فضيلة طويت ، اتاح لها لسان حسود»

وقول الحكيم :

«الحسود لا يسود ولا يموت الا ّ مكموداً» .

وعبثاً حاولت ان اكذّب عيني وعقلي مدة غير قصيرة الى ان «طفح الكيل» فخرجت من هدوئي ، ورزانتي ، وتعقلي ، و«كيّلت له الكيل كيلين» ، ان لم اقل اكثر، وسرعان ما فهم باني اذا لم اكن «ضبعاً» لآكل الناس ، فلستُ «بيضة برشت» لأترك غيري «يزلعني» ، بل انما انا «كما تراني يا جميل اراك ...»

وبالنتيجة ابتعدتُ عنه ، وانا مرفوع الرأس ، ومعتدّ بموقفي الجريء ، النزيه الذي لا يزال موضوع احاديث الكثيرين ، من الاصدقاء والعارفين ، بفخر واعجاب.

وصرت اترحّم على الذين اورثونا تلك الحِكَم التي منها :

«اتّق ِ شرّ َ من احسنتَ اليه»

ومنها :

«احذر عدوك مرة واحذر صديقك الف مرة»
«فلربما انقلب الصديق فكان اعلم بالمضرّة»

ومنها :

«اذا المدرسة لم تعلّمك ، فالدهر يعلّمك...»

* * *

١٠ – تحت سماء الشام

ويشاء الله ان يطرأ عليّ حادث فجأة . واذا بي اصبح ملزماً ان اتركِ المجلة . او اوقفها ، او اؤجرها ، او ابيعها ، ولكني فضلت توقيفها اختيارياً . ثم انتقلت الى الشام وشرعت احرّر في الجرانـــد الكبرى ، واوقات الفراغ كنت اقوم بزيارات العائلات التي تعرفتُ اليها عندما كنت لا ازال في لبنان .

وكانت بينهنّ عائلة سكنت مدة غير قصيرة في بيروت بينما احـد اولادها كان يواصل دروسه في احد المعاهد وكان من تلاميذي القدماء وقد اصبح بعـد نيل «البكالوريا» لا جَلد له لمواصلة الدرس ، ولا رغبة عنده للقيام باي عمـل آخر

لانه ابن عائلة غنية لها من مالها واملاكها ما يجعله يعيش عيشاً هنيئاً بدون ان يزعج نفسه و«يلبك» رأسه في عمل آخر .

الا ان والديه اللذين حنكهما الدهر ، واحكمتهما التجارب لم يكونا من رأيه بل كانا يفضلان ان يتعاطى ولدهما مهنة ولو خلال بضع ساعات من النهار ، لان «الكسل عاقبته وخيمة» .

وكان لهذه العائلة ابن عم من كبار الخبراء بادوات الميكانيك ، ويعمل في محل كبير في الشام وهو في الوقت نفسه رب عائلة مؤلفة من احد عشر شخصاً ، وراتبه الشهري قليل بالنسبة لأتعابه ، ولعدد افراد عائلته .

. وبينما كان الوالدان يتحدثان عن ابن عمهم هذا ، اثناء حضوري ، تحركت في صدري عاطفة الشفقة ، فاقترحت عليهما كي يساعداه ليؤسس محلاً وحده ، او يرغبان ابنهما كي يكون شريكاً معه ...

وما كان الوالد اذ ذاك الا ان قال لي : يكون سرورنا عظيماً اذا كنت انت تشاركهما .

قلتُ : لا . وكيف اتعاطى عملاً اجهل سره ؟

قال : ان ابن عمنا اخبر من الجميع بسر هذه المهنة . وهو ذو قلب طيب ، وغيرة واسعة ، وامانة يُضرب بها المثل .

وحاول الوالد ان يقنعني كي اشارك ابنه ، وابن عمه ، ونؤسس محلاً لا ثقاً .

وعندما رأيت بانه يتكلم عن جد لا عن هزل ، طلبت ارجاء البحث بهذا الموضوع لليوم التالي ليكون ابن عمهم حاضراً فندرس القضية بصرف النظر عن كل غاية تافهة ... فوافقوا .

الخسارة : على ان اول ما فكرت به على اثر اجتماعنا هو ان نحسب حساب الخسارة قبل الربح خوفاً من ان نمثل دور الذين باعوا جلد الدب قبل ما قتلوه .

واذا بالخسارة تبلغ ، مع كل الافتراضات ، وفي اكثر تعديل ، خمسة عشر الف ليرة ، فقلت : انا بامكاني ان اتحمل من هذه الخسارة ، اذا وقعت ،

لا سمح الله ، مبلغ سبعة الاف ليرة فقط .

فانتفضَ الوالد وقال : وانا اتحمل الباقي ، واسمح لي اقول لك باني مستعد ان اتحمل كل الخسارة . لاني على يقين بان اي عمل كان ، متى اقترن بالنية السليمة لا يحصل منه خسارة ، وانت ونحن «عيننا شبعانه» ، ونياتنــا حسنة ، فمن المستحيل ان لا نتوفق ، وبالتالي مستحيل ان نخسر .

فاقتنع ابن عمه ، وقبل ابنه ، وقبلت انا ايضــاً . ولكني توهمتُ ، وسألت نفسي : مِن اين لي المال الكافي ؟

وطلبت مهلة لمدة عشرة ايام لاعطيهم الجواب النهائي . فقال لي الوالد نمهلك خمسة عشر يوماً . ولنا ملء الأمل بان جوابك لنا سيكون بالايجاب .

وهكذا كان .

امّا مِن اين اتيت بالمال فاخجل ان اصرّح .

ولكن كيف السبيل الى السكوت ما دام (ما في شيء بيختفي غير الما بيصير) كما يقول المثل العامي ؟..

لقد كان لي صديق (مغشوش) بي ، ويظنني غنياً كبيراً ، فاستدنت منه مبلغ ثلاثين الف ليرة لبنانية بفائدة تسعة بالمئة .

واستدنت من سبعة اشخاص اخر ، لا تقــل ثقتهم بي عن صديقي السابق ، مبلغ احد عشر الف ليرة سورية بفائدة تتراوح بين العشرة والاثني عشر بالمئة . واضفتُ الى هذا المبلغ ما كنت احوي ، ورحتُ أعقد الاجتماع قبــــل مرور العشرة ايام ، واعطيت الجواب ، طبعاً بالايجاب . واسسنا المحل ، وبدأنا بالعمل فلمسنا ارباحاً لم تكن بالحسبان . واصبحت كل شهر أفي مبلــغ الف ليرة سورية من اصل الدّين . ثم زدنا البضاعة فزادت الارباح .

على اننا ، كل آخر شهر ، كنا ولا نزال نجري حساباً كاملاً ليتأكد لنا كل ما بيع ، وما بقي ، وما لكل منا وما عليه .

وظليت في الوقت نفسه امارس مهنة الصحافة ...

السعادة : وصرت ارى نفسي سعيداً في بلاد الشام ، وقد بعدتُ عن القيــل

والقال ، وعن روح الحسد . وبالتالي بعدتْ عن المشاكل العائلية ، والسياسية المحلية التي لا ينتج منها سوى الضجة ، و(القرقعة) ، وتعب القلب ، وتعب الفكر وسواد الوجه ...

ويطول البحث اذا حاولت ان اتحدث عن نزاهة شريكَيّ في الشام. لذلك واثباتاً للواقع اكتفي بان أذكر عبارة واحدة صغيرة كان يقولها لي كل منهما، كل يوم جمعة، صباحاً ، قبل ذهابه للصلاة في الجامع الا - وهي:

«نحن دورنا اليوم ، وانت دورك يوم الاحد» ...

١١ – عهد الرحلات

الى باريس : وتيسّر لي ، وانا في الشام ، ان اقوم برحلة الى باريس حيث مكثت ثمانية عشرة يوماً ، خلتهم ثمانية عشرة دقيقة ...

الى نيويورك : وبعد مرور اربعة اشهر تيسرتْ لي رحلة سريعة ايضاً، بل اسرع من سابقتها من الشام الى نيويورك حيث اقمت اثنى عشر يوماً فقط . وكان مروري فيها اقل من مروري في باريس ، لاسباب عديدة ، اهمها انني قلما اتقن اللغة الانكليزية فامست رحلتي كأنها رحلة متفرج فقط .

واذ كنت عائداً، اخبرني احد الرفاق بان سائحاً اميركيا جاء مرة الى باريس ليطّلع على ما فيها من آثار قديمة، وقصور حديثة ... فركب بسيارة كان يقودها سائق باريسي مثقف . واصبح الاميركي، كلما شاهد قصراً، يسأل السائق: كم قضوا من الوقت حتى اتمّوا هذا البناء ؟ فيجيبه السائق : سنة او ثمانية اشهر او اكثر او اقل ... فينتفض الاميركي ويقول بهزء وازدراء ما تعريبه :

«لو كان عندنا في اميركا لكانوا اتمّوا بناءه بخمسة ايام او بمدة اسبوع في اكثر تعديل ».

فيسكت السائق لدى سماعه هذا الكلام، ولكن على مضض ...

الى ان ذات يوم استقرّ به امام «برج ايفل» الذي قضوا سنتين حتى اتموا بناءه والذي يبلغ علوّه ثلاثمائة متراً، كما لا يخفى، فسأل الاميركي السائق: وهذا (البرج) كم قضوا من الوقت حتى بنوه ؟

— قال السائق فوراً :

(نهار امس مررتُ من هنا فلم يكن موجوداً ... فيظهر انهم بنوه في الليل، بعد مروري) ...

* * *

عصر السرعة : ويطالع القارىء وصف الرحلتين بالتفصيل في كتاب آخر، معد للطبع ، وعنوانه : (رحلاتنا السريعة) من بيروت ، الى الشام ، الى مصر ، الى عمان، الى باريس، الى اسوج ونارورج، الى اسبانيا، الى المانيا، الى نيويورك...

والجدير بالذكر انني لم اكن اعلم اقربائي، قبل سفري حتى لا اشغل افكارهم بي ، فكانوا يحسبونني باقياً في بيروت او في الشام .

ولولا عودة ابناء عمتي من (كوبا) الى لبنان ، بعد ان مرّوا بنيويورك وحصلوا على رسمي هناك بين الجمهور في حفلة حضرتها قبل مغادرتي نويورك بيوم واحد ، لظلت رحلاتي هذه كأنها سرّية. وهل من غرابة في الامر ونعيش اليوم في عصر ، يسمونه عصر السرعة ؟

* * *

تجديد الامتياز : على انني قبل ان تمضي سنتان على توقيف مجلتي اختيارياً ، تقدمت من وزارة الانباء بطلب تجديد الامتياز، فوافقتْ عليه لاستيفائه الشروط القانونية، واعدتُ اصدار المجلة في لبنان بينما محلي في الشام يدرّ عليّ، وعلى شريكَي ارباحاً لا بأس بها والحمد لله .

وقت الفراغ : ورغبة في قتل الوقت — وقت الفراغ — ما رأيت افضل من التحرير والتأليف.

وهذا الكتاب الاول، هو اقل اتقاناً من المؤلفات العديدة المنوّعة التي لا تزال تحت الطبع .

واليوم عندما يحاول البعض ان يستوضح مني **اين ؟** و**ماذا اشتغل ؟** اجيب فوراً : «لا اعرف» او اقول مازحاً : **الشاب الاعزب ، هل يمكنه ان يكون سوى (شمّام هواء ، قطّاف ورد) ؟**

فيسمعون جوابي ويبتسمون ، ولكنهم لا يصدّقون لاسيما الذين يعرفون بانني (دبّ شغـّل) انهض صباحاً في الساعة الرابعة ولا انام في النهار مطلقاً، واسهر حتى الساعة الحادية عشرة على الاقل.. وهذه عادة تملّكت بي ، منذ عهد الدراسة الذي يسمّيه البعض باعتداد:

«عهد الحياة الذهبي» !..،

لا حرم الله احداً من هذا العهد ! ورحم القائل :

آلا ليت ايام الدراسة ما انطوتْ ويا ليت احلام الحداثة تصدق .



ملحق :

جونيه

هي عاصمة كسروان ، وعروس السواحل اللبنانية . تقسم ، ادارياً ، الى اربعة اقسام وهي :

صربا ، غادير ، حارة صخر ، ساحل علما .

وتمتدّ على شاطىء خليج مستدير ، جميل ، زاخر ، هادر ، مزهوّ كأنه ينطق بالمجد والسؤدد... ، وتستند الى سفح جبال خضراء ، يعبق في ممرّاتها شذا الصنوبر ، والصعتر ، والزنبق ، والياسمين ، وكأن اقدامها تتحفّز للعدو والانطلاق ، هي جبال «حريصا» المتوّجة بالأثر الشهير للعذراء سيّدة لبنان .

وعلى بعد ثلاث كيلومترات شمالاً ، وعلى منحدر جميل ، تطلّ على جونيه بلدة «غزير» مسقط رأس الامير بشير الكبير سنة –١٧٦٧– ، والمقرّ الشتوي لرستم باشا سنة –١٨٧٧–...

وعلى بعد كيلومترين جنوباً يصب «نهر الكلب» المتبلور على ضفته الجنوبية بالنقوش والمآثر التاريخية المجيدة ، وهو ينبع من مغارة «جعيتا كسروان» حيث لجأ ونشأ الامير فخر الدين الثاني الكبير عند آل الخازن ...

وجنوباً وشرقاً تطل على جونيه بلدة «الذوق» – ذوق مكايل – المشهورة بمنسوجاتها الوطنية والتي انجبت شاعراً خالداً وعدداً كبيراً من رجال الادارة والسياسة والدين وكلهم اشهر من ان نذكر اسماءهم ...

* * *

وكأن موقع جونيه الطبيعي النادر جعل فيها المناخ طيباً فيخال ساكنها انه في ربيع دائم . ولطالما شوّق مناخها الرجال العظام للقيام فيها .

ففي «غادير» يقضي **البطريرك الماروني**، وبعض الاساقفة ، فصول الخريف والشتاء والربيع في قصر **«بكركي»** المشيّد منذ مئات السنين ...

وعندما نفى الاتراك **سلاطين بني عثمان** بعد الحرب الكونية سنة — ١٩١٨ — اختاروا جونيه مقاماً وسكنوا في قصر كبير لآل القزي في «غادير» حتى وفاة حفيدهم سنة ١٩٣٩ .

وفي القصر ذاته سكن **احمد الاسعد** وعائلته طيلة شتاء سنة ١٩٤٤ - ١٩٤٥ وكان انذاك وزيراً للنافعة ، ولم يلبث ان تبعه وسكن ، بجارة كبيرة بجواره مدة غير قصيرة ، صهره **صبري حماده** الذي كان انذاك رئيساً للمجلس النيابي اللبناني .

وفي سنة ١٩٥٢ ـ عندما تخلى **بشاره الخوري** عن رئاسة الجمهورية اللبنانية ، اقام في قصره الذي كان شيّده ، اثناء رئاسته ، في «صربا» شارع «الكسليك» ...

وخمس سنوات خلت ، شيّد في جونيه **الامير فؤاد شهاب**، القائد الاعلى للجيش اللبناني ، قصراً منيعاً جنوبي معهد الاخوة المريميين ، ويقيم فيه مع عائلته .

وفي جونيه ، بنايات شاهقة قائمة على جانبي الشارع الرئيسي ، على خط بيروت ـ طرابلس ـ ومتفرقة في سائر نواحيها .

ويتخلل البنايات المتفرقة ، بساتين منوّعة، مقطّعة على اشكال هندسية ، ويرشّ الزهور عليها ألوانه في الربيع ، فيتولّد في قلب الناظر اليها ، من اي جهة كان ، سرور وبهجة...

فضلاً عن انّ مَن ينظر الى جونيه من اعلى قمة «حريصا» ، صباحاً ، عند شروق الشمس ، لا بدّ له ، الاّ ان يشعر بالرّوعة الاخّاذة ، والجمال الساحر .

وكذلك مَن ينظر اليها ليلاً ، وقد اشعلت انوارها الكهربائية ، لا بدّ له الا ان يحسبها قطعة من الجنّة ، تخلّت عنها السماء ، بعد المساء ...

وبالاضافة الى ما في جونيه من ينابيع ساحلية ، يصل اليها مياه «نبع العسل» الباردة صيفاً شتاءً كما يصل اليها ايضاً من منحدر جبال فتوح ـ كسروان ، مياه «نبع الخضيرة» وكلاهما من انفع المياه .

***

ويزيد جونيه فخراً وابتهاجاً ، وجود المعاهد العلمية الزاهرة التي اصبحت فيها بمثابت نبع نبّاض بالعلوم المختلفة ، والثقافات العالية ، وهي تضم كل سنة اكثر من تسعة الاف طالبة وطالب. وكلهم يلهج بالثناء العاطر ، والشكر الجزيل ...

وبفضل هذه المعاهد اصبح في جونيه عدد كبير من اصحاب المهن الحرّة : محامين ، اطباء ، مهندسين ، صحافيين ، تجّار ، صيادلة ...،

على ان ما يلفت النظر ، ويدعو للابتسام ، وان عن غير قصد ، هو ان بجانب او تجاه كل صيدلية ، محل لصنع «النوابيت» ...

* * *

وفي جونيه قصر للعدل برئاسة حاكم فرد ، ومركز للقائمقامية الكسروانية ، وقيادة للجيش ، ومجلس بلدي مؤلف من احد عشر عضواً ...

وفيها مركز للبرق والبريد - ومحطة لخط السكة الحديدية بيروت-طرابلس ، ...وفرع للبنك اللبناني المتحد،-وديورة وكنائس-ودور للسينما واندية للرياضة-وحمامات شهيرة يقصدها هواة السباحة من جميع الانحاء ، اثناء فصلي الربيع والصيف - ومستوصف للتطبيب مجاناً بادارة نخبة من الاطباء ، وباشراف راهبات العائلة المقدسة المارونيات،ومؤازرة جمعية سيدات الصليب الاحمر اللبناني في غادير...

وفي جونيه اغنياء كبار ، ولكن اكثرهم ، قلّما يحسنون التصرف بثرواتهم الطائلة لينتفعوا وينفعوا من حولهم،بل يحصرون اكثر جهودهم،ويا للأسف،للحصول على بعض الزعامات المزيّفة...

* * *

ثم ان قرب جونيه من بيروت التي لا تبعد عنها اكثر من -١٧- كيلومترا ، وسهولة المواصلات بالسيارات الفخمة المنوّعة التي لا تنقطع حركتها نهاراً ولا ليلاً ، جعلتا الحركة الاقتصادية فيها خفيفة بالنسبة لما كانت عليه قبلاً ، ايام كان الناس، من جميع الجهات ، يؤمون جونيه لشراء حاجاتهم المختلفة ، والقمح بنوع خاص .

وقد رُوي ، من باب الظرف والفكاهة ، ان ابن المتن ، كان ، عندما يتأخر عن تناول الغداء او العشاء ، يضع يده على بطنه،ويقول لأهل بيته : **«خربتْ جونيه»..**

* * *

ويمتاز اهالي جونيه بحبهم للغير متمثلين بقول الشاعر :

يا ضَيفنا لو زرتنا لوَجدتنا نحن الضيوف وانت ربّ المنزل

اما لفظة «غريب» فلا اثر لها في جونيه الا في قواميس اللغة . ويلاحظ الجميع بانه ، لا يأتي موظف من المدن او من القرى المجاورة او من سائر الانحاء اللبنانية او من غيرها، الى جونيه ، الا ويتمنّى ان يظل مدة حياته مقيما فيها . وعندما تقضي الظروف بان ينقل منها فانه يغادرها بالرغم منه ، حاملاً معه اجمل الذكريات ...

* * *

هذه لمحة خاطفة عن هذه المدينة التاريخية الجميلة التي خصّها الباري تعالى بمواهب سامية لا نظير لها في سائر المدن كما قال الشاعر الافرنسي الشهير موريس بارس ، لأحد رفاقه ، عندما مرّ في جونيه سنة ١٩٢٥ .

واليوم ، لو نظر المسؤولون ، وكلنا مسؤول ، الى جونيه بعين العطف اكثر مما ينظرون ، او كما يجب ان ينظروا ، لبرزت جونيه ، دون شك ، بين مدن العالم اجمع ، كما تبرز نجمة الصبح بين سائر النجوم .

نبيه محفوظ
…ىء مجلة « صوت البلاد »

ذكريات وعبر

(طبع على نفقة نسيب محفوظ)





الثمن ١٢٥ غ. ل